

سُورَةُ يُنُسْ

رَحْلَةُ الْيَقِينِ
مِنْ اضْطِرَابِ الْبَحْرِ
إِلَى سَكِينَةِ الْوَعْدِ



سُورَةُ يُونُسَ

رِحْلَةُ الْيَقِينِ مِنْ اضْطِرَابِ الْبَحْرِ
إِلَى سَكِينَةِ الْوَعْدِ

رداد السلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تأتي سورة يونس كأنها يدٌ من نور تُوضَع على قلبٍ أرهقته الأسئلة،
فتقول له: تمهّل... ليس ما تراه هو كلُّ الحقيقة، وليس ما يتأخّر عنك
قد ضاع، وليس الباطل حين يعلو قد انتصر، وليس المؤمن حين تضيق
به الأرض قد خذله الله.

إنها سورة تُبصر الإنسان وهو واقفٌ على شاطئ الوجود، ينظر إلى
أمواج الحياة وهي ترتفع وتنخفض، ويظنّ أن مصيره معلقٌ بحركة
الموج، بينما تعيده السورة إلى الحقيقة الكبرى: أن البحر والريح
والسفينة والشاطئ جميعًا في قبضة الله، وأن ما يبدو للعين فوضى
يجري في علمه تعالى بقدر، وأن ما يتقلب في الزمان لا يخرج لحظةً
واحدة عن سلطان الأبد.

وفي هذه السورة يتكرّر مشهد الإنسان في ضعفه العجيب: يكفر بالله
على اليابسة، فإذا اضطرب به البحر ناداه؛ ويزعم الاستغناء حين تتفتح
له الدنيا، فإذا مسّه الضر طال دعاؤه؛ ويستعجل وعد الله لأن عينه

قصيرة، ثم يكتشف أن الزمن الذي حسبه متأخرًا كان يسير إلى الموعد بدقة لا تختل.

وسُمِّيت السورة باسم يونس، مع أن قصته فيها لم ترد إلا في إشارة خاطفة؛ لأن هذه الإشارة تحمل سرّ السورة كلّها: أن الإيمان الصادق يستطيع أن يعترض طريق العذاب قبل نزوله، وأن العودة إلى الله ليست اعترافًا متأخرًا بالهزيمة، بل ميلادًا جديدًا لأمة كاملة. قوم يونس هم الاستثناء المضيء في تاريخ المكذبين؛ آمنوا حين بقي للإيمان أثر، فكشف الله عنهم العذاب. وكأن اسم السورة يعلّق فوق أبوابها هذه البشارة: ما دام في العمر متّسع للتوبة، فليس المصير مغلقًا.

فلنسر في آياتها سيرًا من لا يبحث عن المعنى في الكلمات فحسب، بل يبحث عن نفسه بين الكلمات؛ فإن القرآن لا يروي لنا خبر الإنسان البعيد، وإنما يكشف الإنسان القريب الذي يسكن فينا.

الفصل الأول

حِينَ يَتَعَجَّبُ النَّاسُ مِنَ النُّورِ

(الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ)

تبدأ السورة بحروف تقف النفس أمامها على عتبة السرّ: (الر). كأن الوحي، قبل أن يفتح خزائنه، يعلم العقل أدب الوقوف؛ فليس كل ما في كلام الله يُستنفذ بالشرح، ولا كل ما يبلغه السمع تحيط به العبارة. هناك في القرآن مساحات تُوقظ العجز في الإنسان، لا لتطفئ عقله، بل لترده إلى حجمه؛ إذ أخطر ما يصيب العقل أن يظنّ أن ما لم يفهمه لا حقيقة له.

ثم لا تقول الآية: هذه كلمات الكتاب، بل: (تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ). والآية علامة تقود إلى ما وراءها؛ فالقرآن لا يريد أن يحبسنا عند جمال ألفاظه، بل أن يعبر بنا منها إلى معرفة المتكلم سبحانه، وإلى رؤية الحياة على ضوء حكمته. وهو كتاب حكيم؛ يضع كل كلمة في

موضعها، وكل وعد في وقته، وكل قصة في مكانها، ويخاطب في الإنسان عقله وقلبه وذاكرته ومصيره دفعة واحدة.

غير أن المفارقة المؤلمة أن الناس لم يتعجبوا من ظلماتهم، وإنما تعجبوا من النور الذي جاء لينقذهم منها: (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ).

ما أغرب الإنسان! يَأْلَفُ الضلال حتى يبدو له طبيعيًا، فإذا جاءه الهدى استغربه. يعيش بين الأوهام دهورًا فلا يسأل كيف استقامت لها حياته، فإذا نزل الوحي ليعيد الأشياء إلى مواضعها قال: كيف؟ ولماذا؟ ومن أين؟

لقد أرادوا الرسول كائنًا خارج الطبيعة البشرية، مع أن رحمة الله اقتضت أن يكون رجلًا منهم؛ يعرف تعبهم، ويمشي في أسواقهم، ويجوع كما يجوعون، ويحزن كما يحزنون، ثم يرتفع بالوحي ليقول لهم: إن الطريق إلى الله لا يقتضي أن تخرجوا من بشريتكم، بل أن تُطهّروا هذه البشرية بهدي السماء.

وكانت الرسالة في جوهرها قائمةً على جناحين: (أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا). إنذارٌ يوقظ القلب من غفلته، وبشارةٌ تمنعه من اليأس. فالإنذار بلا بشارة قد يصنع خوفًا قانطًا، والبشارة بلا إنذار قد تصنع أمانًا مخدوعًا؛ أما الوحي فيقيم الروح بين الهيبة والرجاء، حتى تخشى الله ولا تفرّ منه، وترجوه ولا تغترّ بحلمه.

ثم تأتي العبارة الوادعة: (أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ). إنها صورة السبق والثبات والذكر الجميل والعمل الذي تقدّم صاحبه فانتظره عند الله. ما أكرم هذا التعبير! للمؤمن عند ربّه شيء سبقه إلى هناك: سجدة خفية، ودمعة صادقة، وصدقة نسيها، وصبر لم يطلع عليه أحد، وكلمة حق قالها حين صمت الناس. يجيء يوم القيامة فيجد أن أيامه لم تتبدّد، وأن الخير الذي غاب عن ذاكرته لم يغيب عن علم الله.

لكن الكافرين، بدل أن يروا في هذا الوحي رحمةً، قالوا: (إِنَّ هَذَا لَسَجَرٌ مُّبِينٌ). وحين يعجز الباطل عن مناقشة الحقيقة يلجأ إلى تشويه حاملها؛ لأن تسمية النور سحرًا أسهل من فتح العينين عليه. لقد شعروا بقوة القرآن في النفوس، لكنهم بدل أن يسألوا عن مصدر هذه القوة،

اتهموها. وهكذا يفعل القلب حين يخاف من الحقيقة: لا ينكر تأثيرها، وإنما يمنح تأثيرها اسمًا مذمومًا كي يستريح من الاستجابة لها.

الفصل الثاني

السَّمَاءُ الَّتِي لَا يَغِيبُ عَنْهَا التَّنْذِيرُ

(إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمُوتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

بعد أن بيّنت السورة حكمة الكتاب، رفعت أبصارنا إلى حكمة الكون؛ فالذي أنزل الآيات هو الذي رفع السماوات، والوحي والوجود كلاهما صادرٌ عن إرادة واحدة. فلا اضطراب في الحقائق، ولا انفصال بين كتابٍ يُتلى وكونٍ يُرى.

(إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ). ليست القضية أن تؤمنوا بوجود قوةٍ بعيدة خلقت الكون ثم تركته، بل أن تعرفوا ربكم: خالقًا ومالكًا ومدبرًا ومرتبًا. لفظة (رَبَّكُمْ) تُدخل إلى القلب معنى القرب والرعاية؛ فالكون ليس مصنعًا مهجورًا بعد اكتماله، والحياة ليست آلهةً أفلتت من يد صانعها. الله يدبر الأمر، في كل لحظة، وفي كل ذرة، وفي كل مصير.

خلق السماوات والأرض في ستة أيام، مع قدرته على أن يقول لها: كوني فتكون؛ ليعلم الإنسان أن القدرة لا ينافيها التدرج، وأن إحكام الأشياء قد يقتضي أن تمرّ بمراحلها. نحن الذين نستعجل الثمرة قبل نضجها، والنصر قبل اكتمال أسبابه، والشفاء قبل أن تؤدي المحنة رسالتها فينا. أما الحكمة الإلهية فتبني المقادير طبقةً طبقة، حتى إذا جاء موعدها بدت لنا كأنها حدثت فجأة، وهي في علم الله تنمو منذ زمن.

ثم استوى سبحانه على العرش استواءً يليق بجلاله، بلا تكييف ولا تمثيل، (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ). ومن علوه وقهره وسلطانه: (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ). وهذه الجملة القصيرة تكفي لو استقرت في القلب أن تطفئ حرائق كثيرة من القلق.

يدبر الأمر الذي تعرفه، والأمر الذي غاب عنك. يدبر ما تحب، وما تحسبه شرًّا، وما وصلت أسبابه إليك، وما انقطعت عنك طريقه. يدبر لقاءً لم تخطط له، ويصرف عنك بابًا بكيت لإغلاقه، ويؤخر عنك ما لو جاءك في وقته الذي أردت لأفسدك، ويهيئك لنعمة لا يصلح قلبك لحملها اليوم.

إن القلق في كثير من صورهِ محاولةٌ داخلية من الإنسان ليتولَّى التدبير مكان الله. يريد أن يرى الطريق كله، وأن يعرف سرَّ كل منع، وأن يضمن نهاية كل خطوة. فإذا آمن حقًّا بأن الله (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ)، لم يتوقف عن العمل، لكنه يتوقف عن عبادة النتائج؛ يبذل جهده ثم يضع قلبه في مأمن اليقين.

ولا شفاعَة إلا من بعد إذنهِ؛ فلا باب خلف سلطانه، ولا قوة تتجاوز حكمه، ولا وجهة تُكره إرادته. كل الخلق عبيده، وكل الأسباب جنده، وكل الأبواب لا تُفتح إلا بأمرهِ. ومن هنا تأتي النتيجة واضحة لا تحتمل التردد: (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ).

فالعبادة ليست تكليفًا منفصلًا عن حقيقة الكون، بل هي الاستجابة الطبيعية للمعرفة الصحيحة. ما دام هو الخالق والمدير والمالك، فكيف يتجه القلب إلى سواه؟ وكيف يمنح خوفه ورجاءه وذله لمن لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا؟

(أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)؛ لأن التوحيد ليس حقيقة غريبة عن الفطرة، بل حقيقة مطمورة تحت ركام الغفلة. والوحي لا يزرع في الروح أمرا لا تعرفه، وإنما يزيح التراب عن عهدٍ قديم يسكن أعماقها.

الفصل الثالث

الْعَوْدَةُ الَّتِي لَا مَفَرَّ مِنْهَا

(إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ

حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)

(إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا). هكذا، في كلمات قليلة، تسقط الفوارق التي ملأت

الدنيا صخبًا. الملوك والمساكين، المعروفون والمنسيون، الظالمون

والمظلومون، الذين عاشوا تحت الأضواء والذين عبروا الحياة بلا

شاهد؛ الجميع عائدون.

لسنا سائرين إلى الفناء كما يتوهم الحس حين يرى الأجساد تُوارى،

بل إلى المرجع. والموت ليس انهيار الطريق، وإنما انعطافته الأخيرة

نحو الدار التي كانت كل الطرق تؤدي إليها.

(وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا)؛ فلا تتعلق الآخرة بأمنية بشرية تُخفف رهبة الموت، بل بوعد الله الذي أنشأ الوجود أول مرة. ومن بدأ الخلق لا يعجزه أن يعيده. إن الإنسان حين يستبعد البعث ينسى نفسه؛ ينسى أنه قبل أن يكون عظامًا تُبعث كان عدمًا لا يُرى، وأن الإعادة . في تقدير العقل البشري . أهون من الابتداء، وكتاهما على الله هيّنة. لكن لماذا العودة؟ لأن قصة الإنسان لا يمكن أن تكتمل في الدنيا. كم من مظلوم مات ولم ير إنصافه، وكم من ظالم مات محاطًا بالتصفيق، وكم من قلبٍ نقي عاش مجهولًا، وكم من مفسد كُتبت له التماثيل! لو كانت الدنيا آخر المطاف، لبقيت صفحات الوجود مبتورة، ولغدت العدالة أمنيّة جميلة لا حقيقة لها. فجاءت الآخرة ضرورة العدل الكبرى: (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ).

ولا يضيع هناك مثقال ذرة. قد يُساء فهمك في الأرض، وقد تُنسب نيتك إلى غير مقصدها، وقد تعمل عملاً لا يراه الناس؛ لكنك قادمٌ إلى ميزان لا تضل فيه التفاصيل، ولا تخدع فيه المظاهر، ولا يحتاج صاحبه إلى الشهود؛ لأن الله كان على كل شيء شهيدًا.

أما الذين كفروا، فعذابهم (بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ). ليست العقوبة ظلمًا
 مفروضًا على أبرياء، بل ثمرة طريق اختاروه وأصروا عليه. فالإنسان
 في الدنيا ينسج مصيره، وكل يوم يمرّ عليه يضيف خيطًا إلى الثوب
 الذي سيلبسه في الأبد.

الفصل الرابع

شَمْسٌ لِلْحَيَاةِ وَقَمَرٌ لِلْمَوَاعِيدِ

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ
الْأَسْبَابِ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
﴿ إِنِّ فِي آخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ

لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾

ترفع السورة نظر الإنسان إلى الشمس والقمر، لا ليكتفي بالإعجاب
بجمال السماء، بل ليتجاوز المشهد إلى دلالاته. فالشمس ليست كتلة
مشتعلة فحسب، والقمر ليس زينة معلقة في الليل؛ إنهما جزء من كتاب
كوني مفتوح، تتحول فيه الحركة إلى معنى، والضوء إلى دليل،
والمنازل إلى حساب.

(جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا). ضياءٌ يوقظ العالم للحركة، ونورٌ
يسكب على الليل أنسا هادئا. وفي اختلافهما تربية خفية للنفس: فالحياة لا
تصلح نهارا دائما ولا ليلا دائما؛ تحتاج سعي الشمس وسكينة القمر،
ضجيج العمل وخلوة الروح، الانتشار في الأرض والرجوع إلى الداخل.

وقدّر القمر منازل، فلا يطلع في هيئة واحدة، بل يبدأ خيطاً رقيقاً، ثم يمتلئ، ثم يأخذ في النقص حتى يغيب، ليخبر الإنسان أن التغيّر قانون المخلوقات. فما من امتلاء دنيوي إلا ويعقبه نقص، وما من نقص إلا وقد يخبئ بداية دورة جديدة. فلا يغترّ المرء ببدره، ولا ييأس حين يصير هلالاً دقيقاً؛ فالذي يدبّر منازل القمر يدبّر منازل العمر.

(لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ). فالزمن ليس سائلاً مهمّاً يتسرّب من أعمارنا، بل مقدار محسوب. كل شروق يقتطع من الرحلة يوماً، وكل هلال يطوي من العمر شهراً. نحن لا نعيش الأيام فقط؛ إن الأيام تأخذ منا ونحن نعبرها. ومن رأى الزمن آيةً لم يعد يسأل: كيف أقتل الوقت؟ بل ارتجف من السؤال نفسه؛ لأن الوقت هو المادة التي صُنعت منها حياته، ومن قتل وقته إنما يقتل جزءاً من وجوده.

(مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ). هذه الكواكب السابحة، وهذه المقادير المحكمة، وهذا التعاقب الذي لا يختل؛ كل ذلك يطرد من القلب وهم العبث. لم تُخلق الحياة لتكون مسرحًا عابرًا للهو، ولم يُمنح الإنسان عقلاً وروحًا وإرادة ثم يُترك بلا غاية. الحق يسري في بنية الكون، كما يسري الماء في عروق الشجر؛ ومن عاش بلا غاية عاش غريبًا عن هندسة الوجود. **ثم يقول سبحانه: (يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)**، وبعدها: **(لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ)**. فكأن العلم يفتح عين الإنسان على الآية، والتقوى تفتح قلبه لها. وقد يرى العالم حركة الأفلاك ويحسب مساراتها، لكنه لا يبلغ رسالتها إن كان قلبه محجوبًا؛ فالمعرفة التي لا تقود إلى خشية قد تصف المصباح ولا تنتفع بنوره.

الفصل الخامس

حِينَ تَصِيرُ الدُّنْيَا سَقْفَ الطُّمُوحِ

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأْنَأُوا بِهَا وَالَّذِينَ

هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غُفْلُونَ ﴿١﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

تكشف الآية مرضاً أعمق من مجرد إنكارٍ يقال باللسان: (لَا يَرْجُونَ

لِقَاءَنَا). إنهم يعيشون كما لو أن الرحلة لا تنتهي إلى لقاء، وكما لو أن

الأعمال لا تصعد إلى حساب. وحين تسقط الآخرة من وعي الإنسان،

تضيق حياته وإن اتسعت ممتلكاته؛ لأن الدنيا تصبح سقف طموحه،

ولا شيء أشد اختناقاً من روح خُلقت للأبد ثم حُبست في العاجل.

(وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا). ليست المشكلة في أن ينتفع الإنسان بالدنيا، فإنها

مزرعة الآخرة وميدان الاستخلاف، وإنما المشكلة أن يرضى بها؛ أن

يراها كافيةً لظماً الروح، وأن يستبدل بها ما عند الله، وأن يقنع المخلوق

للخلود ببيت يتداعى كل يوم.

والرضا بالدنيا يعقبه (وَاطْمَأْنَأُوا بِهَا). اطمئنانٌ في غير موضعه؛

كمن ينام ملء جفنيه فوق جسرٍ معدٍ للعبور. الدنيا لا تمنح أحداً عهداً

بالبقاء؛ تبتسم وفي أعماق ابتسامتها بذرة الفراق، وتعطي وفي يدها الأخرى قانون الاسترداد. فمن جعلها موطن طمأنينته عاش مهددًا بكل تغير، لأن قلبه أودع سكينته في شيء طبيعته الزوال.

ومن هنا تنشأ الغفلة عن الآيات. فالآيات موجودة في كل مكان، لكن امتلاء القلب بالدنيا يعطل قدرته على الرؤية. يرى الغافل الشمس ولا يرى النعمة، ويشهد الموت ولا يسمع الموعدة، ويجتاز النعمة فلا يعرف المنعم، وتمسّه المحنة فلا يفهم الرسالة. ليست الغفلة نقصًا في الدليل، بل غيابًا للقلب عن الدليل.

(أُولَئِكَ مَأْوَهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ). لقد اتخذوا الدنيا مأوى، مع أنها لا تصلح مأوى، فانتهاوا إلى مأوى آخر صنعتها أعمالهم. والآية لا تقول: بما كانوا يتمنون، ولا بما كانوا يدعون، بل: (يَكْسِبُونَ)؛ فالمصير يُبنى بالفعل المتكرر، وبالاختيارات الصغيرة التي تتراكم حتى تصبح طريقًا، ثم يصير الطريق دارًا.

الفصل السادس

النُّورُ الَّذِي يَمْشِي أَمَامَ الْمُؤْمِنِينَ

(إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ

تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٦﴾ دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ

فِيهَا سَلَامٌ وَّءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

في الجهة المقابلة تقف صورة المؤمنين: (ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ).

لم يكن إيمانهم شعورًا دافئًا حبيس الصدور، بل تحوّل إلى عمل؛ لأن الإيمان الصادق لا يبقى معنى ساكنًا، وإنما يجري في الجوارح كما يجري النسغ في الأغصان، فيورق خلقًا، وعدلًا، ورحمةً، وثباتًا.

(يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ). ما أعمقها من بشارة! فالإيمان ليس فقط استجابةً

لهداية مضت، بل هو نفسه سبب لهداية تأتي. كلما صدق العبد فيما

عرف، فتح الله له بابًا مما لم يعرف؛ وكلما مشى إلى الله بالنور القليل

الذي عنده، زاده الله نورًا يرى به بقية الطريق.

ويهديهم ربهم بإيمانهم في الدنيا بين فتن الآراء واضطراب السبل،

ويهديهم به عند الموت حين تتراجع الأشياء كلها ولا يبقى إلا ما في

القلب، ويهديهم به في الآخرة إلى منازلهم في الجنة. كأن الإيمان نورٌ وُضع في الروح هنا، ثم يظل يكبر حتى يصير طريقًا كاملاً هناك.

(تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ). بعد قلق الدنيا جرياناً لا ينقطع، وبعد خوف الفقد نعيمٌ لا يزول، وبعد الرحيل المتكرر دارٌ لا وداع فيها. وفي الدنيا كان المؤمن يخشى على كل نعمة: من المرض، والفقر، والموت، وتبدل القلوب؛ أما في الجنة فقد زال الخوف الذي كان يختبئ في أطراف

المسرّات. والأعجب أن حديث أهل الجنة لا يبدأ بوصف ما حولهم، بل بتسبيح من أنعم عليهم: (دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ). لقد رأوا كمال العطاء، فعرفوا كمال المعطي؛ وتنزّه الله في قلوبهم عن كل ظنّ ظنوه ساعة الألم، وعن كل وهم مرّ بهم حين تأخر الفرج. هناك يدركون أن تدبيره كان منزّهاً عن العبث، وأن منعه كان منزّهاً عن البخل، وأن ابتلاءه كان منزّهاً عن الظلم.

(وَتَحْيِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ). سلامٌ من الله، وسلامٌ من الملائكة، وسلامٌ يتبادلونه بينهم. سلامٌ كامل لا تختبئ خلفه عداوة، ولا يهدده فراق، ولا تعقبه وحشة. وما الجنة في جوهر نعيمها إلا دار السلام؛ لأن أكثر ما أتعب الإنسان في الأرض لم يكن الجوع وحده، بل الخوف والخصومة وسوء

الظن وانكسار الأمان. ثم تَخْتَمُ أَنْفَاسُهُمْ بِـ(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ). بدأوا رحلة الإيمان في الدنيا بالحمد، وعبروا بها مواطن البلاء بالحمد، فلما رأوا النهاية قالوا الحمد لله؛ وكأن الحمد خيطٌ من نور يصل أول الطريق بآخره.

هناك يفهمون لماذا تأخر ما تأخر، ولماذا انكسر ما انكسر، ولماذا مرّوا بتلك الطرق الوعرة. تنكشف الحكمة، فيخرج الحمد من قلوب امتلأت رؤيّة، لا من السنة تردّد الكلمات فحسب.

وذلك هو اليقين الذي تريد السورة أن تزرعه منذ بدايتها: أن تستطيع أن تقول في منتصف الطريق، قبل انكشاف الأسرار: الحمد لله رب العالمين؛ لأنك تعرف المدبّر، وإن لم تعرف بعدُ تفاصيل التدبير.

الفصل السابع

الْإِنْسَانُ الَّذِي لَا يَعْرِفُ خَطَرَ دُعَائِهِ

(وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفَضِّي إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ

الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

لا يدرك الإنسان كم مرة أنقذه الله من نفسه؛ من كلمة غضب أطلقها، ومن دعوة شرّ دعا بها في لحظة ضيق، ومن رغبة لو تحققت له في الوقت الذي أراد لانقلبت حسرةً طويلة. إننا نعرف نعم الله فيما أعطى، لكننا قلما نعرف نعمه فيما لم يستجب له من انفعالاتنا العمياء.

في ساعة الغضب يطلب الإنسان الشرّ كما يطلب الخير؛ يدعو على نفسه، أو ولده، أو ماله، ويحسب أن اللحظة التي تضيق بها نفسه هي الحقيقة كلها. لكن الله لا يعامل عباده بطيشهم، ولا ينقذ عليهم كل ما نطق به ألسنتهم حين غاب عنها رشدها. إن حلمه تعالى يقف بيننا وبين كثير مما نستحقه، ورحمته تحرسنا من دعوات خرجت من أفواهنا ولم تخرج من حقيقة قلوبنا.

ولو عَجَّلْ لنا الشر كما نحب أن يُعَجَّلَ لنا الخير، لانتَهت آجال كثيرة في لحظات الغضب واليأس. غير أن الله يعلم ضعف الطينة، وتقلُّبِ الشعور، وسرعة الإنسان إلى ما يندم عليه؛ فيمهل، ويصفح، ويفتح للعبد فسحةً يعود فيها إلى نفسه.

وفي الآية تربيةً لطيفةً على ألا نقيس حكمة الله بعجلتنا. نحن نستبطئ الإجابة لأننا نرى حاجتنا الحاضرة، والله يرى حاضرننا ومستقبلنا، وما يصلحنا وما يفسدنا. وقد يكون تأخير ما نحب حمايةً لنا، كما أن عدم تعجيل ما نخاف رحمةً بنا.

لكن الإمهال ليس إهمالاً. فَمَنْ لا يرجون لقاء الله يُتركون في طغيانهم يعمهون؛ يمشون في طرقهم بعين مفتوحة وبصيرة مغلقة، يحسبون استمرار النعمة شهادة رضا، ويظنون تأخر العقوبة عجزاً عن مؤاخذتهم. وما علموا أن أخطر العقوبات أن يُترك الإنسان لنفسه، وأن يُمدَّ له في الطريق الذي يبعده عن الله، حتى يظنّ ضياعه حريةً وعمّه بصيرة.

الفصل الثامن

الصَّوْتُ الَّذِي لَا يَرْتَفِعُ إِلَّا عِنْدَ الْأَلَمِ

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ

ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ)

ترسم الآية مشهداً دقيقاً للإنسان حين يوجعه الضرّ. يسقط عنه ما كان يتزيّن به من استغناء، وينكشف في أعماقه ذلك العبد الفقير الذي طالما أخفاه خلف قوته وأسبابه. يدعو مضطجعا لا يقوى على النهوض، وقاعداً أثقله الهم، وقائماً يطرق كل باب؛ كأن حياته كلها قد تحوّلت إلى نداء واحد: يا رب.

في الألم تتساقط المسافات المصطنعة بين الإنسان وربه. كم من قلب لم يعرف حرارة الدعاء حتى احترق طرف منه بالمحنة! وكم من روح كانت تسير في الأرض لاهية، فلما ضاقت بها الأسباب رفعت رأسها إلى السماء لأول مرة!

والضرر لا يعلم الإنسان اسم الله من جديد، بل يوقظ الاسم الذي كان مستقرًا في فطرته. حين تنقطع الحبال الأرضية تمتد الروح تلقائيًا نحو الحبل الذي لا ينقطع؛ فهي تعرف، في أعماق أعماقها، أن وراء هذا الكون ربًّا يسمع النداء.

لكن المفاجعة ليست في ضعف الإنسان عند الضرر، بل في نسيانه بعد انكشافه: (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ صُورَهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا).

لم يقل: مشى، بل (مَرَّ)؛ مضى سريعًا كأن لا شيء حدث، وكأن تلك الدموع لم تنزل، وكأن العهود التي عقدها في ظلمة البلاء لم تُقل، وكأن القلب الذي كان يرتجف بالأمس لم يذق الافتقار قط.

ما أسرع ما تتحول النعمة من جسر إلى الله إلى حجاب عنه! حين يكون الإنسان في البلاء يرى كل نفحة لطف، فإذا جاءت العافية ألفها حتى نسي مصدرها. يعود البصر، فينسى ظلمة المرض؛ ويعود الأمن، فينسى رجفة الخوف؛ ويفتح الباب، فينسى طول الوقوف خارجه.

وهكذا تُظهر المحنة حقيقة الافتقار، بينما يكشف الرخاء حقيقة الوفاء. ليس الشأن أن تدعو الله حين لا تجد سواه؛ الشأن أن تذكره حين تمتلئ

يداك بالأسباب، وأن يبقى قلبك بعد النجاة وفيًا لذلك النداء الذي خرج منه ساعة الغرق.

(كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ). والإسراف هنا يتجاوز المال إلى إسراف الإنسان في الغفلة، وإهداره لفرص الهداية، وتبديده رسائل الألم. فالمحنة التي لا تغير صاحبها ألمٌ ضاع معناه، والنجاة التي لا تورث شكرًا نعمةٌ لم تبلغ غايتها في القلب.

الفصل التاسع

حِينَ تَصِيرُ أَطْلَالُ الْأُمَمِ مَرَايَا

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا

كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلِيفَ فِي

الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)

يدعو القرآن الأحياء إلى أن يصغوا إلى صمت الهالكين. فالأمم التي ملأت الأرض يوماً بالقوة والضجيج صارت خبراً يُتلى، وأطلالاً تمر بها أجيال لم تعرف أسماء أصحابها. كانوا يظنون أن حضورهم دائم، وأن سلطانهم أصلٌ من أصول الكون، ثم طواهم الزمن، وبقيت السنة التي أهلكتهم.

لم يكن هلاكهم لأنهم ضعفاء، ولا لأن حضارتهم قليلة، بل (لَمَّا ظَلَمُوا). فالظلم شقٌّ في أساس العمران، قد لا تراه العيون أول الأمر، لكنه يظل يتسع في الخفاء حتى ينهار البناء كله. تستطيع القوة أن تؤجّل سقوط الظالم، لكنها لا تستطيع أن تمنحه الخلود. وقد يطول الليل حتى يظن الناس أن الفجر نسي الطريق، غير أن الليل لا يملك إلغاء الصباح.

وجاءتهم رسلهم بالبينات؛ لم يؤاخذهم الله قبل البيان، ولم يغلق عليهم باب النجاة. كانت الحجج واضحة، لكن المشكلة لم تكن في غموض الدليل، وإنما في قلوب عقدت عزمها على ألا تؤمن: (وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا). لقد بلغ العناد في نفوسهم حدًّا أصبحت معه كل آية جديدة مادةً لمكابرة جديدة.

ثم تلتفت السورة إلينا: (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ). هنا تتحول القصة من ماضٍ نقرأه إلى امتحان نعيشه. نحن لسنا جمهورًا يتفرج على التاريخ، بل الحلقة التالية فيه. الأرض التي كانت تحت أقدامهم صارت تحت أقدامنا، والفرص التي انتهت إليهم انتهت إلينا، والسنن التي جرت عليهم لا تزال تعمل.

إن الاستخلاف لا يعني أن الأرض مُلِّكت لنا ملكًا مطلقًا، بل أنها أودعت بين أيدينا مدةً محدودة. نحن أمناء لا مالكون، وعابرون لا مقيمون. كل قوة في أيدينا سؤال، وكل معرفة مسؤولية، وكل منصب ورقة في الاختبار.

(لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ). لا ماذا تقولون عن أنفسكم، ولا أي صورة ترسمونها أمام الناس، بل كيف تعملون. فالله يكشف بالواقع المعلوم في سابق علمه، ويطبق الحجة بالفعل الذي يختاره الإنسان. وفي ميدان العمل تسقط الأقنعة؛ إذ يستطيع المرء أن يتزَيَّن بالمبادئ في الكلام، لكن السلطة والمال والخوف والغضب تكشف مقدار ما دخل منها إلى قلبه. وحين نمر بآثار الأمم، لا ينبغي أن نقول فقط: هنا عاش قوم ثم زالوا؛ بل: هنا امتحن قوم بما ئمتحن به، فأجابوا إجابةً صنعت نهايتهم. والأطلال ليست حجارةً بقيت من الماضي، وإنما أسئلةٌ بقيت للمستقبل.

الفصل العاشر

الْقُرْآنُ الَّذِي أَرَادُوا لَهُ أَنْ يُشْبِهَ أَهْوَاءَهُمْ

(وَإِذَا تُلِّىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتَتْ بِقُرْءَانٍ
غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا
يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ)
لم يعترضوا لأن القرآن غامض؛ فالآيات بيّنات. ولم يطلبوا دليلاً
أوضح، وإنما طلبوا قرآناً آخر لا يزعج ما استقرّ في نفوسهم: (آتَتْ
بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ).

إنهم لم يكرهوا الوحي لأنه لا يفهم، بل لأنه يفهم أكثر مما يريدون؛
يكشف أصنامهم، ويسحب القداسة من امتيازاتهم، ويسوي بين السيد
والعبد أمام الله، ويجعل التقوى لا النسب ميزاناً، ويرفض أن تكون
الحقيقة خادمة للقوة.

وهذه رغبة بشرية قديمة متجددة: ألا يرفض الإنسان الدين كله، بل
يطلب ديناً مصمماً على مقاس رغباته؛ ديناً يطمئنه من غير أن يغيّره،
ويبارك اختياراته من غير أن يحاسبه، ويمنحه الوعد من غير أن يطالبه

بالتكليف. يريد من الوحي أن يصادق على نفسه، بينما جاء الوحي ليهديها ويزكيها ويقوم اعوجاجها.

(أَوْ بَدَّلْهُ)؛ غير الآيات التي تصدم مصالحنا، وخفف الأحكام التي تقاوم شهواتنا، واترك لنا من الدين ما يصلح للزينة والاحتفال. وهنا يظهر الفرق بين من يعبد الله ومن يعبد صورته الخاصة عن الله: الأول يخضع للوحي ولو خالف هواه، والثاني لا يقبل من الوحي إلا ما وافق هواه، فهو

في الحقيقة لا يتبع إلا نفسه. ويأتي الجواب حاسماً: (مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي).

فالرسول ﷺ أمينٌ على الرسالة، لا مالِكٌ لها. مقام النبوة ليس سلطةً على كلام الله، بل كمال العبودية له. وما أعظم هذه الأمانة: لا تعديل لإرضاء جمهور، ولا حذف اتقاءً لغضب متنفذ، ولا مساومةً على حقيقة كي تصبح أكثر قبولاً.

(إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ). هذه هي عظمة الرسول ﷺ: أنه أكمل الناس اتباعاً. لم يجعل من نفسه مصدرًا ينافس الوحي، بل كان قلبه الطاهر مهبطاً له، ولسانه الكريم مبلّغاً، وحياته بياناً حياً لمعانيه.

ثم يقول: (إِنِّي أَخَافُ إِنَّ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ). فإذا كان الرسول ﷺ يُعلن خشيته من العصيان، فأَيُّ وهم يسمح لغيره أن يأمن مكر الله؟ إن القرب من الله لا يصنع غرورًا، بل يصنع خشية؛ وكلما عرف العبد ربّه ازداد إحساسًا بثقل الأمانة.

الفصل الحادي عشر

سِيرَةُ تَشْهَدُ قَبْلَ أَنْ يَنْطِقَ الدَّلِيلُ

(قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَنْكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن

قَبْلِهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ

بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ)

تستدعي الآية سيرة النبي ﷺ كلها شاهداً على صدقه. لقد عاش فيهم عمراً قبل الرسالة؛ عرفوا طفولته وشبابه، وعانوا طهارة يده ولسانه، واثقنوه على ودائعهم، ولقبوه بالصادق الأمين. فكيف يصبح عند الأربعين كاذباً على الله، وهو الذي لم يكذب على بشر؟

(فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ). إن السيرة الصادقة حجةٌ تسبق الكلام.

وحين يحمل الإنسان رسالةً عظيمة، لا يكفي أن تكون عباراته جميلة؛ ينبغي أن تقف حياته خلف كلماته. فالكلمات التي لا تسندها سيرة قد تلمع

لحظة، لكنها لا تنفذ إلى الأعماق.

لقد جاءهم بكتاب يفوق ما عرفوه من البيان، ويحمل من حقائق العقيدة والتشريع وأخبار الأمم ما لم يكن له قبل الوحي به علم. لم

يتدرج أمامهم في تعلّم الشعر، ولم يجلس إلى معلم، ولم يعيش حياة الباحث الذي يجمع مادته من الكتب؛ ثم فجأة انفتح على لسانه هذا البحر. فأَي تفسير يبقى غير الوحي؟

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ). ليس الإيمان إلغاءً للعقل، بل استدعاء له من أسر الهوى. والعقل الصادق إذا نظر في سيرة الرسول ﷺ، وفي مضمون الرسالة، وفي التوافق بين طهارة المبلغ وعظمة ما بلغ، أدرك أن الأمر أكبر من صناعة بشرية.

ثم تضع الآية الافتراء على الله والتكذيب بآياته في طرفي الظلم الأعظم. فهناك من ينسب إلى الله ما لم يقله، وهناك من يردّ ما قاله الله؛ الأول يزيد في الوحي من عنده، والثاني ينتقص منه بهواه، وكلاهما يجعل نفسه حاكمًا على الحق.

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ). قد ينجح المجرم في جولة، ويجمع مآلاً، ويصنع حوله ضجيحًا، لكن النجاح غير الفلاح. النجاح قد يكون إصابة غرض عاجل، أما الفلاح فهو نجاة الإنسان كله، وبقاء ثمرته بعد انطفاء اللحظة. والمجرم قد يملك أسباب الظهور، لكنه لا يملك أن يجعل الباطل

الفصل الثاني عشر

شُفَعَاءُ لَا يَسْمَعُونَ، وَقُلُوبٌ لَا تَرَى

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا

عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ

وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

ما أتعس أن ينحني الإنسان، الذي كرّمه الله بالعقل والروح، أمام شيء لا يضر ولا ينفع! أن يهب خوفه ورجاءه ودعائه لكائن عاجز لا يملك لنفسه قيامًا، فضلًا عن أن يملك لغيره خلاصًا.

لكن الوثن لا يعيش بقوة الحجر؛ إنه يعيش بالوهم الذي يحيط به. لذلك اخترعوا له وظيفة: (هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ). كانوا يقرّون بوجود الله، لكنهم لم يخلصوا له العبادة؛ توهموا أن بينهم وبينه وسائط تملك من ذاتها أن تقرّبهم إليه، فجعلوا من عجزهم العقلي عقيدةً، ومن أوهامهم طريقًا إلى السماء.

ويأتي الردّ في صورة سؤال يهدم الوهم من جذوره: (أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا

لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ)؟ أتعلمون الله بما خفي عليه؟

أَتَزْعُمُونَ وجود شفعاء لم يأذن بهم ولم يخبر عنهم؟ إن ما لا يعلمه الله لا وجود له؛ لأن علمه أحاط بكل شيء.

ثم يأتي التنزيه: (سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ). تنزه سبحانه عن أن يحتاج إلى وسيط يعرفه بحاجات عباده، أو يدفعه إلى رحمتهم، أو يؤثر في حكمه بغير إذنه. إنه أقرب إلى عبده من كل قريب، يسمع السرّ قبل أن يصير كلامًا، ويعلم الألم قبل أن يصير دمة.

وكلما صحّ التوحيد في القلب تحرر الإنسان من العبوديات الصغيرة؛ فلا يتذلل لمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الخالق، ولا يجعل مصيره في يد بشر، ولا يعلّق رجاءه النهائي بسبب. يأخذ بالأسباب، لكنه يعلم أنها أبواب، وأن الفاعل المدبّر وراءها هو الله.

الفصل الثالث عشر

الْحَقِيقَةُ الْوَاحِدَةُ قَبْلَ أَنْ تَتَشَطَّى الطَّرُقُ

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ

لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

كان الأصل واحدًا: فطرة تعرف ربها، وحقيقة لا تتعدد، وعبودية تتجه إلى خالق واحد. ثم جاء الاختلاف، لا لأن الحق نفسه انقسم، بل لأن الأهواء والمصالح والتأويلات فرقت الناس من حوله.

إن كثرة الطرق لا تعني أن كل طريق يوصل. وكثرة الأصوات لا تحوّل التناقض إلى حقيقة. قد يختلف الناس في الله، لكن الله واحد؛ وقد تتعدد تصوراتهم عن الحق، لكن الحق لا يتعدد بتعدد التصورات.

والاختلاف هنا يكشف حرية الإنسان وابتلاءه. لو شاء الله لجعل الناس على صورة واحدة لا يقدرון على مخالفتها، لكن الإيمان الذي لا يمكن رفضه ليس اختبارًا، والطاعة التي لا خيار فيها لا تكشف ما في القلب.

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ)؛ كلمةٌ بالإمهال إلى الأجل المسمى، وإرجاء القضاء الفاصل إلى يوم الحساب. ولذلك نرى الباطل قائماً، والمختلفين يتجادلون، والظالم يمضي حيناً بلا عقوبة عاجلة. وليس ذلك غياباً للعدل، بل تأخيراً ليومه الكامل.

إن الله لا يعجل لأن حكمه لا يخشى فوات المتهم، ولا ضياع الأدلة، ولا موت الشهود. نحن نستعجل لأن الزمن يحدّنا، أما الله فلا يخرج شيء عن علمه وسلطانهِ. سيأتي اليوم الذي تُردّ فيه الكلمات إلى نياتها، والدعاوى إلى حقائقها، ويُقضى بين الناس فيما كانوا فيه يختلفون.

الفصل الرابع عشر

لِمَاذَا يَطْلُبُ الْإِنْسَانُ آيَةً وَالسَّمَاءُ كُلُّهَا آيَاتٌ؟

(وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ الْمُنْتَظِرِينَ)

طلبوا آيةً خاصة يقترحون شكلها وموعدها، كأن الآيات المبنوثة حولهم لا تكفي، وكأن القرآن الذي يتلى عليهم ليس آيةً قائمة بين أيديهم. وحين لا يريد القلب أن يؤمن، لا يعاني من قلة الأدلة، بل يهرب من الأدلة الموجودة بطلب أدلة جديدة.

إنه التأجيل النفسي للحقيقة: سأؤمن إذا وقع كذا، وإذا رأيت كذا، وإذا انكشف لي الغيب. يضع الإنسان شروطاً لله، ثم يتوهم أن المشكلة معرفية، مع أنها في أعماقها رفضٌ للتسليم.

(فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ). فالرسول ﷺ لا يفتح خزائن الغيب بإرادته، ولا يأتي بالآيات وفق اقتراح المعاندين. إنه عبدٌ رسول، ينتظر أمر الله كما ينتظر الناس وقوعه، لكنه ينتظر بقلب واثق، وهم ينتظرون بروح التحدي.

(فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ). غير أن الانتظار ليس واحداً: منهم

من ينتظر ليرى هل يصدق الوعد، ومنهم من ينتظر لأنه يعلم أن الوعد

صديق. الأول معلق بالحدث، والثاني معلق برب الحدث.

وهنا تتجلى منزلة اليقين: أن تثق بكلام الله قبل أن تراه متجسداً في

الواقع، وأن يكون الوعد عندك حقيقةً قادمة، لا احتمالاً ينتظر الاختبار.

فالمؤمن لا يصدق الله لأن الأيام أثبتت له صدق وعده؛ بل يعلم أن

الأيام لا بد أن تنتهي إلى حيث أخبر الله، لأن الخبر صدر عن لا

يخلف الميعاد.

الفصل الخامس عشر

الْمَكْرُ الَّذِي يَكْتُبُ أَصْحَابُهُ هَزِيمَتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَّكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا قُلْ

اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ)

كان ينبغي للرحمة، حين تأتي بعد الضرر، أن تفتح في القلب نافذةً على المنعم؛ فالعافية بعد المرض ليست كالعافية التي لم يسبقها وجع، والأمن بعد الخوف له مذاق يعرفه من ارتجف طويلاً، والماء بعد الظمأ ليس مجرد ماء، بل حياة تُشرب.

ومع ذلك، ما إن يذيق الله بعض الناس رحمةً بعد ضراء مستهم حتى يعودوا إلى المكر بآياته؛ يحرفون دلالاتها، ويبحثون عن تفسير يستبعد يد الله، وينسبون النجاة إلى المصادفة، والرزق إلى الذكاء وحده، والعافية إلى الدواء وحده، كأن الأسباب خلقت نفسها وأجرت آثارها بنفسها.

وصف الله الرحمة بأنها تُذاق؛ لأن النعمة ينبغي أن تُستشعر لا أن تمر على الجسد باردة دون أن تصل إلى القلب. غير أن الإنسان قد

يتذوق لذة الرحمة وينسى صاحبها، ويستمتع بالعطاء ثم يستخدمه في مقاومة المعطي.

(إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا). جاءت (إِذَا) لتصور سرعة التحول؛ فما أقصر المسافة عند بعض النفوس بين دمعة الاستغاثة وضحكة الغرور! بالأمس كان القلب يضج بالدعاء، واليوم يدبر الحيل ليتخلص من مقتضيات الهداية.

لكن المكر البشري مهما دق محاط بعلم الله: (قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا). وليس مكر الله ظلمًا ولا خديعةً مذمومة، تعالى سبحانه عن ذلك، بل هو تدبيره العادل الذي يرد به كيد الماكرين عليهم من حيث لا يشعرون. يظن أحدهم أنه أحكم الخطة، فإذا الخطة نفسها تحمل بذرة انكشافها، وإذا الطريق الذي اختاره للنجاة يقوده إلى موضع السقوط.

(إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ). كل شيء مكتوب: الاجتماع الخفي، والهمسة التي لا يسمعها إلا صاحبها، والخطة التي لم تغادر الصدر. وما دام المكر مكتوبًا قبل أن يكتمل تنفيذه، فهو مكشوفٌ أمام من يدبر مصيره.

إن الباطل يعمل في الظلام لأنه يظن الظلام ستراً، ولا يعلم أن الظلمة والضوء أمام علم الله سواء.

الفصل السادس عشر

فِي السَّفِينَةِ حِينَ تَسْقُطُ الْأَقْنَعَةُ

(هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ فِيهِمْ

بَرِيحٌ طَيِّبَةٌ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ

مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ

هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

ها هنا تبلغ السردية القرآنية من روعة التصوير ما يجعل القارئ

كأنه واقف على ظهر السفينة، يسمع صفير الريح، ويرى الموج

يتصاعد من كل مكان، ويحسّ الخشب يضطرب تحت قدميه.

تبدأ الرحلة هادئة: (بَرِيحٌ طَيِّبَةٌ). البحر مستكين، والسفينة تنساب،

والوجوه مستبشرة. وحين تسير الأسباب كما يشتهي الإنسان، ينسى

اليد التي سيرتها؛ يرى الشراع ولا يرى مرسل الريح، ويعتمد على

السفينة ولا يذكر من جعل الماء يحملها.

(وَفَرِحُوا بِهَا). ليس الفرح مذموماً في ذاته، لكن الخطر أن يستغرق الإنسان في النعمة حتى ينسى المنعم، وأن يرى سكون البحر ضمناً دائماً، مع أن الريح الطيبة لا تملك أن تعاهد أحداً على البقاء. وفجأة تتغير الصورة: (جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ). لا مقدمات طويلة؛ فالتحولات الكبرى قد تدخل الحياة من باب لحظة. خبرٌ واحد يغير ملامح البيت، وألمٌ مباغت يعيد ترتيب الأولويات، وحادثٌ قصير يفصل بين عمريين.

ثم يأتي الموج من كل مكان. ليست موجةً واحدة يمكن مواجهتها، بل إحاطة كاملة. تضيق جهات الأرض حتى لا يبقى إلا اتجاه السماء: (وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ). والإحاطة أشد من الخطر؛ إنها شعور الإنسان أن كل منفذ قد أُغلق، وأن الأسباب التي اتكأ عليها صارت جزءاً من عجزه.

هناك، عند الحد الفاصل بين الحياة والموت، تسقط الآلهة المصطنعة من الذاكرة، وينقطع التعلق بكل عاجز: (دَعَا آلَهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ).

لم يحتاجوا إلى درس طويل في التوحيد؛ فالموج غسل عن الفطرة غبارها. عرف القلب ربّه حين لم يعد للكذب فائدة، ولم تعد المجاملة تنقذ، ولم يبق للإنسان إلا الحقيقة العارية: عبدٌ ضعيف بين أمواج، وربُّ واحد يملك البحر والرياح والنجاة.

والشدائد كثيرًا ما تصنع هذا الإخلاص؛ لا لأنها تزرع معرفةً لم تكن موجودة، بل لأنها تحطم الأصنام التي حجبت المعرفة. في الرخاء يظن الإنسان أن له عشرات الأبواب، أما في العاصفة فيكتشف أن الأبواب كلها تنتهي إلى باب واحد.

ويعاهدون الله: (لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ). لحظة الخوف تُنضج فيهم أجمل الكلمات، لكن المحكّ ليس جمال العهد تحت الموج، وإنما صدقه بعد الوصول إلى الشاطئ.

الفصل السابع عشر

الشَّاطِئُ الَّذِي نَسِيَ أَهْلَهُ عَهْدَ الْبَحْرِ

(فَلَمَّا أَنْجَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) ما إن استقرت أقدامهم على اليابسة حتى تركوا قلوبهم في مكان آخر. كان ينبغي أن يخرجوا من البحر أرواحًا جديدة، وأن تصبح النجاة عهدًا دائمًا؛ لكنهم عادوا إلى البغي كأن الموج لم يهزمهم، وكأنهم لم يروا الموت قريبًا إلى ذلك الحد.

(إِذَا هُمْ يَبْغُونَ)؛ مرة أخرى تأتي (إِذَا) لتفصح سرعة النكوص. لقد كانوا قبل قليل يطلبون الحياة من الله، فلما وهبهم إياها استعملوها في معصيته. كانوا مستضعفين أمام البحر، فلما شعروا بالقوة بغوا في الأرض. وهذه من غرائب النفس: قد لا تتعلم من النجاة إلا إذا حفظت ذاكرتها الأخلاقية. فالإنسان يذكر تفاصيل الألم، لكنه قد ينسى رسالته؛ يذكر الموج ولا يذكر العهد، ويتحدث عن المعجزة ثم يعيش كأنها لم تقع.

(يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ). يظن الباغي أنه يجرح غيره فقط، لكنه أول جريح في جريمته. قبل أن يقع الظلم على المظلوم، يكون قد وقع على إنسانية الظالم، فأفسد ضميره، وأظلم قلبه، وكتب في صحيفته ما سيجده أمامه. قد ينتزع الظالم أرضاً أو مالاً أو مكانة، لكنه في اللحظة نفسها يقطع من نجاته. وما يحصل عليه من البغي ليس ربحاً، بل قرضٌ مسموم سيطلب به كاملاً.

(مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا). مهما اتسعت غنيمة الظلم فهي متاع قصير؛ شيء يُنتفع به قليلاً ثم يُترك. والمتاع لا يصير حقاً بطول حيازته، ولا تمحو السنون ذاكرة المظلوم من علم الله.

(ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ). الشاطئ الذي ظنوا أنهم نجوا إليه ليس نهاية الرحلة. ثمة رجوع آخر لا سفينة تنقلهم منه ولا ريح تردهم عنه. وهناك لا يحتاج الله إلى من يخبره بما فعلوا، وإنما (فَنُنَبِّئُكُمْ): يُعرض عليهم سجلهم حتى يروا الحقيقة التي كانوا يخفونها عن أنفسهم.

الفصل الثامن عشر

الْأَرْضُ حِينَ تَظُنُّ أَنَّهَا امْتَلَأَتْ مُسْتَقْبَلَهَا

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ

مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ

أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِيرُونَ عَلَيَّهَا أَتَمَّا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ

تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

هذه الآية ليست مجرد تشبيهه للعالم بنبات يزول؛ إنها مشهدٌ كامل

للحضارة البشرية حين تبلغ ذروة ثقتها بنفسها.

يبدأ كل شيء بالماء النازل من السماء. الحياة في أصلها عطية؛

قطرة لا يملك الإنسان إنزالها هي التي توقظ الأرض كلها. ثم يختلط

بها النبات، وتتنوع الثمار، وتمتد الخضرة، ويأكل الناس والأنعام. هكذا

تنمو الدنيا هادئة من رحمة لم يصنعها أحد.

ثم تبلغ الأرض لحظة الزينة: (أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ).

وكان الأرض عروسٌ ارتدت حلتها الأخيرة. اكتملت الحقول، ونضجت

الثمار، وصار الحصاد قريباً، وبدأت الأسباب كلها مطيعة.

وهنا يدخل الوهم: (وَوَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا). هذه هي اللحظة الخطرة؛ ليست حين تكون الأرض قاحلة، بل حين تزدهر حتى يظن أهلها أنهم أصبحوا مالكي مصيرها. يمتلكون الأدوات، ويحسبون الأرقام، ويراقبون الطقس، فيتوهمون أن إحاطة المعرفة ببعض القوانين تعني امتلاك القانون كله.

لم تقل الآية إنهم انتفعوا بها، بل ظنوا أنهم قادرون عليها؛ أي إن النعمة تحولت في وعيهم من أمانة إلى ملك مطلق، ومن فضل إلى استحقاق ذاتي. وحين تنفصل القدرة البشرية في شعورها عن قدرة الله، تصبح الحضارة مأخوذةً بجمالها، لا ترى الهشاشة المختبئة تحت الزخارف.

(أَتَمَّهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا). لا وقت يحميها؛ قد يأتي الأمر والناس نيام، أو يأتهم وهم في ذروة الحركة. قد تسقط المنظومات في لحظة، ويجف الزرع، وينهار الاقتصاد، ويتحول الأمن الذي بدا صلباً إلى ذكرى.

(فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ الْأَمْسِ). لم تذبل ببطء، بل صارت حصيداً. والأشد وقعاً: (كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ الْأَمْسِ)؛ كأنها لم تقم، ولم تزدهر، ولم تملأ

عيون أهلها.

ذلك هو الزوال الكامل: لا يذهب الشيء فحسب، بل تبدو أيام حضوره، من شدة انمحائه، كأنها حلمٌ قصير. كم من مدن كانت مركز العالم ثم صار الباحثون ينقبون عن حجارتها! وكم من قوة ظن أصحابها أن التاريخ استقر عند أقدامهم ثم صاروا سطرًا في كتاب!

ليست الآية دعوة إلى ترك إعمار الأرض، بل إلى تحرير العمران من الغرور. ازرع، وابن، وأتقن، لكن لا تقل بقلبك: أنا قادر عليها. خذ بالأسباب كلها، واترك في روحك نافذة مفتوحة على المسبب؛ فإن النعمة تُصان بالشكر، لا بالافتتان بها.

(كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ). لأن العيون كلها ترى النبات، لكن المتفكر وحده يرى سيرته؛ يرى في اخضراره ميلاد الدنيا، وفي اكتماله غرورها، وفي حصاده مصيرها.

الفصل التاسع عشر

دَارٌ لَا يَأْتِيهَا الذُّبُولُ

(وَاللَّهُ يَدْعُوْا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

بعد أن عرضت الآية السابقة دنيا تتزيّن ثم تصبح حصيداً، فُتِح فجأةً بابٌ إلى دار أخرى: (وَاللَّهُ يَدْعُوْا إِلَى دَارِ السَّلَامِ).

هناك دار لا يأخذها الذبول، ولا يأتيتها أمرٌ يحيل خضرتها حصيداً، ولا يستيقظ ساكنوها على خبر فراق. جاءت الدعوة إليها عقب صورة الزوال، ليعرف الإنسان أن القرآن لا ينتزع الدنيا من قلبه ويتركه في الفراغ، بل يخرج من دار مهددة إلى دار آمنة، ومن زينة مستعارة إلى نعيم مقيم.

والله هو الذي يدعو. ما أعظمها من كرامة! ربّ العالمين يدعو عباده إلى جواره ورضوانه، مع أنه غني عنهم، وهم الفقراء إليه. يرسل الرسل، وينزل الكتب، ويكرر المواعظ، ويفتح باب التوبة بعد كل زلّة، وكأن العمر كله بطاقة دعوة ممتدة إلى دار السلام.

هي دار السلام لأن الله هو السلام، ولأن تحيتهم فيها سلام، ولأن كل أسباب الخوف قد انقطعت. لا مرض يهدد الجسد، ولا حسد يعكر الود، ولا شيخوخة تسرق الجمال، ولا موت ينتظر خلف المسرّة.

وفي الدنيا لا يكتمل سلام؛ كل نعمة يخالطها خوف فقدها، وكل لقاء تُظلله إمكانية الفراق. أما هناك، فالسلام ليس لحظةً بين حربيين، بل طبيعة الدار نفسها.

(وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ). الدعوة عامة، والهداية فضل يطلبه القلب بصدقه وإقباله. والصراط مستقيم؛ لا يلتف بصاحبه في متاهات الأهواء، بل يصل الأرض بالجنة، والعمل بالجزاء، واللحظة بالأبد.

فكل خطوة طاعة على الأرض هي في حقيقتها اقتراب من دار السلام، وكل مجاهدة لهوى هي خروج من طريق القلق إلى طريق الطمأنينة.

الفصل العشرون

الْحُسْنَى وَالزِّيَادَةُ: حِينَ لَا يَبْقَى بَيْنَ الْقَلْبِ وَرَبِّهِ حِجَابٌ

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

للذين أحسنوا الحسنى. جاء الجزء من جنس العمل، لكنه تجاوزه كرمًا؛ أحسنوا في زمن محدود، فأعطاهم الله الحسنى في خلود لا ينتهي.

أحسنوا علاقتهم بربهم، فلم يعبدوه عادةً باردة، بل حبًّا وخشيةً ورجاءً. وأحسنوا إلى الناس، حين كان بإمكانهم أن يظلموا فغفوا، وأن يجرحوا فرفقوا، وأن يبخلوا فبذلوا. وأحسنوا أعمالهم، فلم يكتفوا بصورتها، بل طهروا نياتها من طلب المحمدة.

ولهم فوق الحسنى (زِيَادَةٌ)؛ وقد صح عن النبي ﷺ تفسيرها بالنظر إلى وجه الله الكريم. إنها النعمة التي تتضاءل عندها نعم الجنة كلها؛ أن يكشف الحجاب، فينظر المؤمنون إلى ربهم رؤيةً تليق بجلاله سبحانه، من غير إحاطة ولا تكييف ولا تمثيل.

لقد عبدوه في الدنيا ولم يروه، وآمنوا به حين كانت بينهم وبين الغيب حجب، واشتاقوا إليه في الصلاة والدعاء، فلما بلغوا دار الكرامة أكرمهم بأعظم ما تآقت إليه أرواحهم.

الجنة ليست ثمارًا وأنهارًا وقصورًا فحسب؛ غايتها العليا رضوان الله والقرب منه. فالقلب المؤمن لا يريد من النعمة أن تنسيه المنعم، وإنما يرى كل نعمة طريقًا إليه.

(وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ). كم حملت الوجوه في الدنيا من غبار الحزن! كم أخفت خلف ابتسامتها انكسارات لا يعلمها إلا الله! وكم ذلّ المؤمنون للحق في أعين المتكبرين، أو لاقوا من السخرية ما ترك أثره في نفوسهم!

أما هناك فلا سواد حزن يغطي الوجوه، ولا ذلّ يطأطئها. لقد ذلّوا لله في الدنيا فرفعهم، ورفضوا الذل للباطل فأكرمهم. وجوههم ناضرة؛ لأن القلوب وصلت أخيرًا إلى مأمنها.

(هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ). وهذه الكلمة هي تمام النعيم؛ فلو خيف على الجنة من
النهاية لنقص الفرح بها. لكن الخلود ينزع من القلب آخر ظلال القلق: لا
خروج، ولا تناقص، ولا وداع.

الفصل الحادي والعشرون

وَجُوهٌ غَشِيَهَا لَيْلٌ مَا كَانَتْ تَكْسِبُ

(وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ

مِّنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ

النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

في الآية السابقة قال سبحانه: (لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْخُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ)، فزاد

أهل الإحسان من فضله. أما هنا فالجزاء بمثل السيئة، لا زيادة عليها؛ وهذه لمحة من ميزان العدل الإلهي: الحسنات يضاعفها الكرم، والسيئات لا تتجاوز مقدارها العدالة.

لكن السيئات لم تعد أفعالاً مضت وانتهت؛ لقد صارت ظلمة ظاهرة على الوجوه. فالعمل يتسلل في الدنيا إلى ملامح الروح، ثم يأتي يوم القيامة وقد اتخذ صورته الكاملة.

(وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ). كانوا يطلبون العزة بمعصية الله، ويظنون أن القوة

والمال والأتباع تحميهم، فلما سقطت الأسباب ظهر الفقر الذي كان

مستوراً خلفها.

(مَا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنِّ عَاصِمٍ). لا سور يحجب، ولا نسب ينفع، ولا نفوذ يمتد إلى ساحة الحساب. في الدنيا قد يفرّ الإنسان من سلطة إلى سلطة، ومن بلد إلى بلد، ومن محكمة إلى أخرى؛ أما هناك فإلى أين يفرّ والملك كله لله؟

ثم ترسم الآية وجوههم: (كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا). ليست ظلمةً عابرة، بل قطع من الليل تراكت فوق الوجوه. كأن كل خاطئة لم يتب منها صاحبها تركت قطعة ظلام، حتى اكتملت صورة الداخل على الخارج.

وما النار إلا المصير الأخير لنارٍ كانت تشتعل في القلب: نار الكبير والحدق والشهوة المحرمة والجحود. لكن الإنسان كان يزينها بالأسماء حتى لا يرى لهيبها، فلما سقطت الأسماء ظهرت حقيقتها.

الفصل الثاني والعشرون

يَوْمَ تَنْقُطُ الْحَبَالُ الْكَاذِبَةُ

(وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ

فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴿٦٠﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا

بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلِينَ ﴿٦١﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا

أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمْ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

يُحْشَرُونَ جَمِيعًا، فلا يضيع فرد في زحام البشرية، ولا تستر الكثرة أحدًا. ثم يؤمر المشركون وشركاؤهم أن يلزموا مكانهم؛ فقد انتهى زمن الحركة والفرار، وجاء زمن المواجهة.

في الدنيا بدت العلاقة بين العابد والمعبود الباطل وثيقة؛ علّق عليه خوفه ورجاءه، ونذر له، ودعاه، وبنى حياته حول وهمه. أما في الآخرة فيقول سبحانه: (فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ)؛ فرّقنا وميّزنا وقطعنا الرابطة المتوهمة.

إن الروابط التي لا تُبنى على الحق لا تصمد أمام انكشاف الحقيقة. كل اجتماع على باطل يحمل في داخله فرقةً مؤجلة، وكل محبة قامت على المعصية ستتحول خصومةً حين تظهر كلفتها.

ويتبرأ الشركاء من عابديهم: (مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ). فمن عُبد منهم وهو لا يشعر بعبادتهم، أو لم يرض بها، يتبرأ منها؛ وما عبد أولئك في الحقيقة إلا أو هَامهم وأهواءهم. لم يكونوا يتصلون بحقيقة من عَظّموهم، بل بصورة نسجوها ثم خضعوا لها.

(فَكَفَى بِاللّٰهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ). وحين يكون الله شهيداً تسقط كل رواية مصطنعة. لا يستطيع الإنسان أن يعيد صياغة تاريخه، ولا أن ينتقي منه ما يخدم دفاعه، ولا أن يختبئ خلف فهم أتباعه له.

(هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ). هنالك تذوق كل نفس حقيقة ما قدّمت، وتختبر عملها بعد أن كان خبراً مكتوباً. في الدنيا قد تبدو الخطيئة لذةً عابرة، والطاعة تعباً ثقيلاً؛ أما هناك فتسقط القشور: تتذوق النفس ثمرة الطاعة سلاماً، وثمره المعصية حسرة.

(وَرُدُّوْا إِلَىٰ آللّٰهِ مَوْلَهُمْ ٱلْحَقِّ). كانوا في الدنيا يتخذون أولياء متوهمين، لكنهم رُدوا إلى المولى الحق. وكل ولاية سواه زائلة، وكل قوة سواه مستعارة، وكل سند لا يتصل به مائلٌ إلى السقوط.

(وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ). بحثوا عن أوهامهم فلم يجدوها؛ لقد ضاعت الآلهة المصنوعة حين احتاجوا إليها أكثر ما يكون الاحتياج، وبقي الإنسان وحده أمام الحقيقة التي قضى عمره هاربًا منها.

الفصل الثالث والعشرون

أَسْئَلَةُ تَرَدُّ الْإِنْسَانِ إِلَى الْحَقِيقَةِ الَّتِي يَعْرِفُهَا

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ

فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

لا تبدأ الآية بإلقاء جواب، بل بسلسلة أسئلة؛ لأن بعض الحقائق لا يحتاج الإنسان إلى من يضعها في عقله، وإنما يحتاج إلى من يوقظها فيه. إن الجواب مستقر في أعماق المخاطبين، لكن طبقات الغفلة والمصلحة تمنعهم من أن يبنوا حياتهم عليه.

(مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)؟ من السماء ينزل الماء، ويحيي

الضوء، وتهب الرياح، وتبدل الفصول؛ ومن الأرض يخرج الحب

والثمر، وتتفجر المعادن والينابيع، وتمتد المراعي. والرزق لا يأتي من

جهة واحدة؛ إنه شبكة من التدبير يتعاون فيها الكون كله ليصل إلى

الإنسان لقمة واحدة.

حين يرفع المرء الخبز إلى فمه، قلّما يرى الرحلة الكونية التي سبقته إليه: سحابًا انتقل، ومطرًا هطل، وبذرةً انشقت، وشمسًا أمدّتها بالنور، وأرضًا حملتها، وأيديّ زرعت وحصدت وطحنت. يظن أنه اشترى الرغيف بماله، ولا يرى أن المال كان آخر حلقة فقط في سلسلة من النعم لا يقدر على صنع أولها.

(أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ)؟ لم يقل: من خلق السمع والأبصار فحسب، بل من يملكها؛ فهي تحت سلطانه دواءً. السمع الذي تستقبل به العالم ليس حقًا ذاتيًا مضمونًا، والبصر الذي تفتح به نافذتك على الوجود وديعةٌ قد تُردّ في لحظة. ما أكثر ما نستخدم النعمة في الغفلة عن مالِكها، ولا نعرف مقدارها إلا إذا أصابها خلل!

(وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ)؟ يخرج النبات الحي من الحبة الجامدة، والطائر من البيضة، والإنسان من نطفة، ويخرج الميت مما كان حيًّا. وفي ما وراء الصورة الحسية معنى يلامس الأرواح: يخرج الله الإيمان من بيئة الكفر، والصالح من بيت الفساد، واليقظة من قلب طال عليه موت الغفلة. فلا تيأس من أرض تبدو ميتة؛

فقد يخبي الله تحت ترابها ربيعًا لا تراه؛ ٦

ثم يجتمع كل ذلك في السؤال الجامع: (وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ؟) من يدبّر أمر الخلية والمجرة، والقطرة والبحر، وميلاد الإنسان وموت الحضارات، وما يقع في العلن وما ينمو بصمت في ظلمات الغيب؟ (فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ). لم يكونوا عاجزين عن الجواب، وإنما كانوا عاجزين عن الوفاء بمقتضاه. يعترفون بأن الله يرزق ويملك ويحيي ويميت ويدبر، ثم يصرفون بعض العبادة لغيره.

وهنا يأتي السؤال الذي يكشف التناقض: (أَفَلَا تَتَّقُونَ؟) فإذا كنتم تعرفون أنه وحده يفعل ذلك كله، فلماذا لا يكون وحده معبودكم؟ ولماذا تعرف الحقيقة في لحظة السؤال، ثم تنقضها في سلوك الحياة؟ إن المعرفة التي لا تغيّر الوجهة حجةٌ على صاحبها، لا نجاة له؛ فما نفع أن يعرف اللسان اسم المدبّر بينما يتعلّق القلب بمن لا يملك شيئاً؟

الفصل الرابع والعشرون

مَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ؟

(فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرِفُونَ ۝)

كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

(فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ). ليس تصورًا من تصورات البشر، ولا فكرةً

تتغير بتغير الثقافات، بل الحق الذي تستمد منه الأشياء وجودها، وتقوم

به السماوات والأرض، وتنتهي إليه المصائر.

ثم يأتي السؤال الفاصل: (فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)؟ لا توجد بين

الحق والضلال منطقة يستطيع الإنسان أن يقيم فيها بلا موقف. قد تتعدد

مسافات البعد عن الحق، وقد تتجمل الضلالات بأسماء مختلفة، لكنها

تظل خروجًا عن الطريق.

إن الحقيقة لا تتحول إلى نصف حقيقة كي ترضي أهواءنا. والتوحيد

لا يقبل أنصاف الشراكة، كما لا تقبل الشمس أنصاف الظلام في موضع

إشراقها. فإذا كان الله هو الرب الحق، فكل ما اتُّخذ من دونه ربًّا باطل،

وكل طريق لا ينتهي إليه تيه، وإن ازدانت جوانبه بالذات والشعارات.

(فَأَنَّى تُصَرِّفُونَ)؟ من أين يأتي هذا الانصراف العجيب؟ كيف يعرف الإنسان الجواب ثم يمشي في عكسه؟ كيف يرى آثار الخالق في كل شيء، ثم يعطي قلبه لما خلقه الله؟

لم يقل: فَأَنَّى تنصرفون، بل (تُصَرِّفُونَ)؛ كأن قوياً من الهوى والعادة والتقليد والمصلحة تصرفهم عن الاتجاه الذي تشير إليه فطرتهم. وكلما سلّم الإنسان قياده لشهوة، صرفته خطوة عن الحق، حتى يصبح الطريق المستقيم غريباً عليه، ويألف الالتواء.

ثم تحقق كلمة الله على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون. وليس معنى ذلك أنهم مُنَعُوا الإيمان ظلماً، بل إنهم خرجوا عن الطاعة، وردوا الآيات مرةً بعد مرة، حتى صار العناد هيئةً مستقرةً في أرواحهم. طرق الحق أبوابهم، فاختاروا الإغلاق؛ ومع تكرار الرفض أصبح الباب الذي أغلقوه بأيديهم كأنه جزء من الجدار.

هذه من أخطر سنن النفس: أن الخطيئة لا تبقى فعلاً خارج الإنسان، بل تتحول بالتكرار إلى طبع، والرفض المتكرر لا يترك القلب كما كان؛ كل «لا» يقولها للحق تجعل «نعم» التالية أثقل على لسانه.

الفصل الخامس والعشرون

مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ؟

(قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَوُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَوُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتِ تُؤَفَّكُونَ)

تواجههم الآية بما لا يستطيع وثن ولا بشر ولا قوة أن تدّعيه: مَنْ من شركائكم يبدأ الخلق ثم يعيده؟

قد يصنع الإنسان من المادة الموجودة أشكالاً جديدة، لكنه لا يخلق المادة من العدم. قد يعالج الجسد، لكنه لا يهب سر الحياة. قد يستنسخ صورةً أو يركّب خليةً من عناصرها، لكن السؤال يبقى واقفاً خلف كل إنجاز: من خلق العناصر والعقل والقوانين والإمكان نفسه؟

(قُلِ اللَّهُ يَبْدَوُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ). بداية الخلق تقع أمامنا في كل لحظة، وإن حجبته الألفة: طفل يولد، وبذرة تتفتح، وكائن صغير يتكون في موضع لا تراه العيون. إن الذي يحيطنا بهذه البدايات قادر على الإعادة التي يستبعتها الإنسان.

الخلق الأول ليس حادثةً بعيدةً انتهت، بل شهادة متجددة. كل ميلاد حجة على البعث، وكل ربيع يأتي بعد موت الأرض تذكيراً بأن العودة ليست غريبة عن نظام الكون.

(فَأَنَّى تُؤَفَّكُونَ)؟ كيف تُقلبون عن الحقيقة بعد هذا الوضوح؟ والإفك قلبٌ للشيء عن وجهه؛ فالمشكلة ليست غياب المعنى، بل انقلاب الموازين حتى يرى الإنسان الممكن مستحيلًا، ويعامل المستحيل كأنه يقين. يستبعد البعث مع أنه يشهد بدايات الخلق، ثم يعلق رجاءه بأشياء لم تبدأ خلقه ولا تملك إعادته. وهذه مأساة الشرك كلها: أن يترك الإنسان القادر الحقيقي، ثم يتوزع قلبه على عاجزين.

الفصل السادس والعشرون

مَنْ يَهْدِي الْقَلْبَ إِذَا تَكَاثَرَتِ الطُّرُقُ؟

(قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي

إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

بعد سؤال الخلق تأتي قضية الهداية؛ فالإنسان لا يحتاج إلى من يمنحه الوجود فقط، بل إلى من يده: لماذا وُجد؟ وكيف يعيش؟ وإلى أين يمضي؟

قد يملك الإنسان عينيّن ولا يرى الطريق، وقد يمتلئ عقله بالمعلومات ويبقى تائهاً عن المعنى. فالهداية ليست كثرة ما تعرف، بل أن تستقيم معرفتك على غايتها، وأن ترى الأشياء في مواضعها، وأن تقودك الحقيقة إلى الله.

(قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ). يهدي بالوحي، ويهدي بالفطرة، ويهدي بالآيات
المبثوثة في الأنفس والآفاق. يهدي العقل إلى الدليل، والقلب إلى
الطمأنينة، والإرادة إلى العمل. وقد يرى اثنان الآية نفسها فيعبر أحدهما
منها إلى الله، ويقف الآخر عند ظاهرها؛ لأن الهداية ليست في وجود
النور وحده، بل في عين سليمة تستقبله.
ثم يعقد القرآن موازنة يستحيل على العقل الصادق أن يخطئ فيها:
(أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى)؟

كيف يُتبع عاجزٌ يحتاج هو نفسه إلى من يدلّه؟ وكيف يُترك هدي الله
لآراء بشر تتغير، وتتناقض، وتصحح اليوم ما قررته بالأمس؟ ليس
معنى ذلك إلغاء العقل البشري، بل وضعه في مرتبته: أداة عظيمة
للفهم، لكنه ليس إلهاً يخلق الحقائق من ذاته.

العقل يرى بالنور الذي وهبه الله، كما ترى العين بالضوء؛ فإذا حاول
الاستغناء عن الوحي في أسئلة الغيب والغاية والمصير، كان كعينٍ
تزعم أنها تستطيع الرؤية في الظلام لأنها سليمة.

(فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)؟ إنه سؤال يحمل دهشةً من فساد الميزان. فما الذي أصاب الحكم حتى صار المحتاج إلى الهداية قائداً، وصار الهادي إلى الحق متروكاً؟

قد لا يسجد الإنسان لصنم حجري، لكنه حين يمنح شخصاً أو فلسفةً أو عصرًا حقَّ تحديد الخير والشر استقلالاً عن الله، يكون قد نقل إلى ذلك الشيء نوعاً من مقام الهداية الذي لا يملكه على الحقيقة إلا الله.

الفصل السابع والعشرون

حِينَ يَتَنَكَّرُ الظَّنُّ فِي ثِيَابِ الْيَقِينِ

(وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
بِمَا يَفْعَلُونَ)

ليست كل فكرة شائعة حقيقة، ولا كل قول تردده الأكثرية يقيناً. قد
يمشي الناس خلف وهمٍ طويلاً حتى ينسوا أنه بدأ ظناً، ثم تمنحه كثرة
الأتباع هيبة الحقيقة وهو لم يكتسب منها شيئاً.

(وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا). الظن هنا ليس بحثاً متواضعاً يعترف بنقصه،
وإنما تخمين أقاموه مقام العلم، ثم بنوا عليه عبادةً ومصيراً. ورثوا أقوالاً
فلم يمتحنوها، وألفوا مسالك فلم يسألوا عن نهايتها، ورأوا الجماعة تسير
فاستراحوا إلى وقع الأقدام.

وما أسهل أن يستعير الإنسان يقينه من كثرة المحيطين به! يشعر
بالأمان لأن الجميع يفعلون الشيء نفسه، مع أن كثرة السائرين لا تغير
جهة الطريق.

(إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا). لا يستطيع ألف ظن أن يملأ مكان حقيقة واحدة. والباطل لا يصير حقًا لأن الناس أحسنوا عرضه، ولا ينقلب الوهم علمًا لأن الخطاب الذي يحمله بدا واثقًا. وفي عصر تتكاثر فيه الأصوات والصور، يصبح الإنسان عرضةً لأن يخلط بين الحضور والبرهان، وبين الانتشار والصحة. قد تنتشر الفكرة لأنها توافق الهوى، لا لأنها توافق الحقيقة؛ وقد يُهمل الحق لأنه يكلف النفس تغييرًا لا تريده.

لكن الآية لا تدعو إلى الشك في كل شيء، بل إلى نقل القلب من هشاشة الظن إلى رسوخ اليقين: أن يطلب البرهان، وأن يردّ المتشابه إلى المحكم، وألا يبيع مصيره لمجرد انطباع.

(إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ). يعلم ما وراء دعاواهم من مصالح، وما تختبئ خلف كلمة «نظن» من رغبة في الهروب. فالإنسان قد يزعم أنه لم يقتنع، بينما الحقيقة أنه اقتنع ولم يرد أن يدفع كلفة الاقتناع.

الفصل الثامن والعشرون

الْقُرْآنُ الَّذِي لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا مِنْ اللَّهِ

(وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ

يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

لا تقول الآية فقط إن القرآن لم يُفترَ، بل تقول: (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ

أَنْ يُفْتَرَى)؛ أي إن طبيعته وبناءه وحقائقه وآثاره تأبى أن تكون ثمرة افتراء بشري.

الافتراء قد يصنع نصًّا، لكنه لا يصنع هذا القرآن الذي يخاطب الإنسان في جميع طبقاته؛ يقيم الحجة على عقله، ويحرك قلبه، ويهذب شهوته، ويكشف تاريخه، ويفتح أمامه الغيب، ثم يظل غضًّا بعد القرون كأن آياته تنزل على جرح الساعة.

ما كان لبشر أن يؤلف كتابًا يعاتبه في مواضع، ويكشف ضعف الإنسان بلا مdahنة، ويقيم ميزانًا لا يمنح مؤلفه ولا قومه امتيازًا خارج التقوى. الكتب المصنوعة تحمل حدود أصحابها، أما القرآن فيعلو على

بيئته وزمانه، ثم يحمل من سعة الدلالة ما يجعل كل جيل يجد نفسه مخاطبًا فيه.

(وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ). فهو لا يظهر في التاريخ نبتةً مقطوعة الجذور، بل يأتي مصدقًا لأصل الوحي الذي أنزله الله على رسله من قبل، يعيد العقيدة إلى صفائها، ويربط الرسالات جميعًا بمصدرها الواحد. (وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ). يفصل للإنسان ما يحتاج إليه في علاقته بربه ونفسه والوجود؛ يبين له أين يقف، وما الذي أفسده، وكيف يعود، وإلى أي مصير يسير. وليس تفصيله حشدًا للمعلومات، بل وضع للحقائق في بنية تهدي الحياة.

(لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ). لأنه صادر عن رب العالمين، جاء صالحًا لمخاطبة العالمين. ربّي الله به أول جيل، ولا يزال يرّبّي به كل قلب يفتح له أبوابه. قد تدخل إليه مهمومًا فتخرج بمعنى للصبر، وتدخله مغرورًا فتخرج وقد رأيت ضعفك، وتدخله تائبًا فتجد أن الآية كانت تنتظرك في موضعها.

والريب قد يقع في نفس القارئ، لكنه لا يقع في القرآن نفسه؛ كما أن العين المريضة قد ترى الشمس مضطربةً، والاضطراب فيها لا في الشمس.

الفصل التاسع والعشرون

سُورَةُ وَاحِدَةٍ أَمَامَ عَجْزِ الْبَشَرِ

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِمَّنْ دُونِ

اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

حين زعموا أنه افتراء، لم يكتف القرآن بنفي التهمة، بل فتح لهم ميدان الاختبار: إن كان كلام بشر، فالبشر قادرون على أن يأتوا بمثله. لا يطالبهم بكتاب كامل، بل بسورة واحدة، وليجمعوا من استطاعوا من أهل اللغة والفكر والبيان.

إنه تحدٍّ لا يصدر إلا عن يقين مطلق بالمصدر. فالمؤلف البشري قد يخشى المقارنة، أما القرآن فيدعو خصومه إلى أن يستنفدوا قدرتهم، ثم يجعل عجزهم جزءاً من الحجة.

وليس الإعجاز مجرد موسيقى ألفاظ، مع أن بيانه بلغ ما لا يُجارى؛ بل هو ذلك الالتحام العجيب بين اللفظ والمعنى، والخبر والتشريع، والرغبة والجمال، والإيجاز والسعة. آية قصيرة تحمل من طبقات الدلالة ما تعجز الكتب الطويلة عن استنفاده.

(وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ). اجمعوا العقول والألسنة، واستعينوا بمن شئتم؛

فالقضية ليست ضعف فرد أمام فرد، وإنما عجز المحدود أمام كلام العليم الذي لا تحدّه حدود البشر.

وقد يكون الإنسان قادرًا على تقليد بعض النغم أو بناء عبارة تشبه ظاهر الأسلوب، لكنه لا يستطيع أن ينفخ فيها الروح القرآنية. يمكن صناعة مصباح يشبه المصباح، لكن التشابه في الزجاج لا يعني القدرة على خلق الضوء.

ويبقى التحدي قائمًا، لا ضجيجًا تاريخيًا، بل سؤالًا لكل منصف: كيف خرج هذا الكتاب من بيئة لم تعرف صناعة الكتب، وعلى لسان نبي أميٍّ، ثم بقي أعلى من الزمن الذي نزل فيه، وأوسع من الثقافات التي عبرها، وأشد حضورًا في القلوب من كل نص عرفته البشرية؟

الفصل الثلاثون

التَّكْذِيبُ بِمَا لَمْ يُحِطْ بِعِلْمِهِ

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ۖ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّابَ الَّذِينَ مِنَ
قَبْلِهِمْ ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

هنا يكشف القرآن خللاً عميقاً في منهجهم: لم يكذبوا بعد أن أحاطوا
علماً وفحصوا الحجة، بل كذبوا أولاً؛ لأن ما جاءهم تجاوز حدود
معرفتهم، أو هدد البناء الذي اعتادوه.

(بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ۖ). لم يمنحوا أنفسهم وقت الفهم، ولم يقفوا أمام
النص بتواضع المتعلم، بل جعلوا جهلهم مقياساً للحقيقة: ما لم نفهمه
سريعاً فليس حقاً، وما لم يدخل في حدود خبرتنا فلا وجود له.

وهذه آفة عقلية متكررة: أن يظن الإنسان أن حدود علمه هي حدود
الوجود، وأن ما غاب عن أدواته قد بطل في ذاته. مع أن أكثر الوجود
كان قائماً قبل أن يكتشفه الإنسان، ولم تكن جهالته به تمحو حقيقته.

(وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)؛ لم يأتهم بعد تحقق ما أخبر به القرآن وانكشاف مآلاته. استعجلوا الحكم قبل أن تكتمل أمامهم الشواهد. ولو امتلكوا تواضعًا معرفيًا لقالوا: لم نفهم بعد، بدل أن يقولوا: ليس بحق. الفارق عظيم بين إنسان يعجز عن الفهم فيعترف بعجزه، وإنسان يعجز فيتهم الحقيقة. الأول قد يقوده تواضعه إلى العلم، والثاني يحول جهله إلى سجن لا يرى جدرانه.

(كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ). تتغير العصور، لكن بنية المكابرة واحدة. كل أمة تتوهم أن اعتراضها جديد، مع أنها تكرر بالكلمات نفسها خوف الإنسان القديم من الوحي.

ثم يأمرنا القرآن بالنظر في العاقبة، لا في اللحظة: (فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ). فقد يبدو المكذب قويًا في أول الطريق، ويبدو النبي وحيدًا، لكن الحقيقة لا تُقاس بصورة البداية. العاقبة هي الموضع الذي تسقط فيه الأوهام، ويظهر وزن المبادئ بعد أن ينتهي ضجيج القوة.

الفصل الحادي والثلاثون

قُلُوبٌ سَتَفْتُحُ نَوَافِذَهَا، وَقُلُوبٌ اخْتَارَتْ الْإِغْلَاقَ

(وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ ۖ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ۗ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ)

لم يكن الناس أمام القرآن كتلةً واحدة. منهم من سيؤمن به، وإن تأخر إيمانه، وإن وقف اليوم في صف المكذبيين. ومنهم من سيظل يرفض، لا لنقص في البيان، بل لأن الفساد في باطنه أقوى من رغبته في الحق.

وفي الآية فسحة أمل للداعية: لا تحكم على النهايات من المواقف العابرة. قد تسمع من إنسان اليوم كلمة قاسية، ثم يكون غدًا من أشد الناس تعلقًا بالحق. القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، وكم من محاربٍ للفكرة صار من حماتها حين أشرق النور في داخله.

وفي المقابل، لا ينبغي أن يظن المرء أن كل رفضٍ سيزول بمجرد زيادة الشرح؛ فبعض الناس لا تنقصهم الحجة، وإنما تعترض مصالحهم طريق الإيمان. يريدون من الحقيقة أن تتغير، لا من أنفسهم أن تتغير.

(وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ). يعلم من التبس عليه الأمر حقاً، ومن اتخذ

الالتباس ستاراً. يعلم الحائر الذي يبحث، والمكابر الذي يتظاهر بالبحث.

قد تتشابه الأسئلة على اللسان، لكن الله يرى المنبع الذي خرجت منه:

سؤالٌ يريد الهداية، وسؤالٌ لا يريد إلا تأجيلها.

ولذلك لا يملك البشر أن يشقوا عن القلوب، لكنهم مأمورون بالبيان

والعدل والصبر. أما الحكم المحيط بالسرائر فله وحده؛ فهو يعلم أي

قلب قاوم النور ثم تاب، وأي قلب أظهر اللين وهو يضمّر الإفساد.

وهكذا تنتهي هذه الموجة من السورة بإعادة الإنسان إلى مسؤوليته

الفردية: القرآن قائم، والحجة ظاهرة، والطريق مفتوح؛ لكن كل قلب

يختار موقفه من النور، ثم يصير اختياره جزءاً من مصيره.

الفصل الثاني والثلاثون

حِينَ تَنْتَهِي الْمُجَادَلَةُ وَتَبْقَى مَسْئُولِيَّةُ الْاِخْتِيَارِ

(وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا
بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ)

للدعوة مقامٌ تُعرض فيه الحجة برفق، ويُفتح فيه باب الحوار بصبر،
وتُزال الشبهة بالحكمة؛ لكن الحوار ليس طريقاً بلا نهاية، ولا يملك
الداعية أن يحمل الناس قسراً إلى الإيمان. فإذا بلغ البيان غايته، وأصرَّ
المكذب على تكذيبه، بقيت المسؤولية الفردية واقفةً بين كل نفس وربها.

(لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ). ليست العبارة تسويةً بين الحق والباطل، ولا
اعترافاً بأن الطرق كلها سواء؛ بل إعلانٌ لانتهاء الجدل بعد قيام الحجة،
وردُّ لكل إنسان إلى تبعة اختياره. فالحقيقة لا تفقد حقيقتها لأن أحداً

رفضها، والرسول ﷺ لا يتحمل وزر من اختار الإعراض بعد البلاغ.
إن الإنسان يستطيع أن يخالفك في الرأي، لكنه لا يستطيع أن ينقل
إليك عاقبة اختياره. لكل نفس صحيفة لا تختلط بصحيفة غيرها، ولكل
قلب موقف سيأتي به وحده يوم القيامة.

(أَنْتُمْ بَرِيُّونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيٌّ مِمَّا تَعْمَلُونَ). تتحدد الحدود الأخلاقية بوضوح؛ فلا تنازل عن المبدأ طلباً لرضا المكذبين، ولا اشتراك في باطلهم تحت اسم التعايش مع الخطأ. يمكن أن تُحسن إلى المخالف، وتعدل معه، وترفق به، دون أن تذيب الفرق بين ما يرضي الله وما يسخطه. وفي الآية راحةٌ لقلب الداعية: لست مسؤولاً عن النتائج، وإنما عن الصدق والبلاغ. لا تقيس قيمة الحق بعدد من استجابوا له، ولا تجعل إعراض الناس يبعث فيك الشك بما تحمل؛ فقد يكون النور ساطعاً، لكن العين هي التي أغلقت أجفانها.

الفصل الثالث والثلاثون

أَذَانٌ تَسْمَعُ الصَّوْتَ وَلَا تَسْمَعُ الْحَقِيقَةَ

(وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ۝)

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ)

كانوا يجلسون قريباً من النبي ﷺ، فيصل صوت القرآن إلى آذانهم، لكن معانيه لا تنفذ إلى قلوبهم. وبين سماع الصوت وسماع الحقيقة مسافة لا تقطعها الأذن وحدها؛ تحتاج إلى قلب يريد أن يفهم، وعقل تحرر من حكم الهوى.

(وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ). قد يبدو الاستماع في ظاهره إقبالاً، لكنه

أحياناً يكون تريبصاً؛ يستمع المرء لا ليهتدي، بل ليعثر على كلمة

يقطعها، أو موضع يخاصم به، أو شبهة يحمي وراءها موقفه القديم.

وهناك من يسمع القرآن سنوات، ويحفظ ألفاظاً منه، لكن بينه وبين

هدايته جدار؛ لأن القرآن لا يفتح خزائنه لمن يأتيه مختبراً متعالياً، وإنما

لمن يأتيه طالباً للحق. لا يكفي أن تحسن الاستماع بحاسة الأذن، بل

ينبغي أن يصمت الضجيج الداخلي الذي يحجب المعنى.

(أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ)؟ ليس صممًا في الجسد، بل صممٌ صنعه الإعراض. وربما كان الصمم المعنوي أشد؛ ففاقد السمع يعرف أنه لا يسمع، أما المعرض فيظن نفسه قد سمع وفهم، وهو لم يسمع إلا صدى موقفه.

ومنهم من ينظر إلى النبي ﷺ؛ يرى وجهه، وسمته، وصدقه، وصلاته، وثباته، لكنه لا يرى النبوة. فالبصر آلةٌ تلتقط الصورة، أما البصيرة فهي التي تعبر من الصورة إلى الدلالة.

(أَفَأَنْتَ تَهْدِي آلْعُمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ)؟ لا يملك الرسول ﷺ أن يخلق الرؤية في قلب اختار العمى. يستطيع أن يشير إلى الطريق، لكنه لا يستطيع أن يجبر الروح على أن تحبّه.

وفي هذا عزاء لكل من أحرق قلبه حرصًا على هداية من يحب: ابذل، وادع، واصبر، وكن أنت صورةً صادقة للحق؛ لكن لا تتوهم أن مفاتيح القلوب في يدك. أنت تطرق الباب، والله وحده يفتحه.

الفصل الرابع والثلاثون

الظُّلْمُ الَّذِي يَبْدَأُ مِنَ الدَّاخلِ

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

آية قصيرة، لكنها تقيم ميزانًا كاملاً لفهم العلاقة بين الله والإنسان والمصير.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا). جاءت كلمة (شَيْئًا) نافيةً لأدق مقدار يمكن

أن يتوهمه الوهم؛ لا ينقص حسنة، ولا يزيد سيئة، ولا يؤاخذ عبدًا بجريرة غيره، ولا يغلق بابًا في وجه من صدق في طلبه.

تنزّه سبحانه عن الظلم؛ فهو الغني المطلق، والظلم إنما ينشأ من حاجة الظالم أو جهله أو ضعفه أو خوفه، والله منزّه عن ذلك كله. لا يحتاج إلى أن ينتزع حقًا من عبد، ولا تخفى عليه حقيقة حتى يخطئ الحكم، ولا يعجز عن إيصال الحق إلى صاحبه.

لكن الإنسان يظلم نفسه. يظن أن معصيته خروجٌ على أمر بعيد عنه، ولا يرى أنها طعنة يوجهها إلى صفاء روحه. يختار اللذة التي تفسد

قلبه، والكبر الذي يعزله عن الحق، والحقد الذي يحرق صدره، ثم يتساءل من أين جاءت الوحشة.

إن أشد الظلم خفاءً أن يعيش الإنسان ضد الغاية التي خُلق لها. السمكة تُظلم إن أُخرجت من الماء، والنبته تُظلم إن حُجبت عن الضوء، والروح تظلم نفسها حين تنقطع عن الله؛ لأن حياتها الحقيقية في معرفته وعبادته.

وقد يظلم المرء نفسه وهو يتوهم أنه يدافع عنها؛ يترك الحق كي يحفظ مكانته، ويبيع المبدأ ليحمي مصلحته، ويُسكت ضميره ليسترىح، ثم يكتشف أنه حفظ صورة نفسه وخسر حقيقتها.

والله لا يظلم الناس حين تترتب النتائج على اختياراتهم؛ كما لا يكون إحراق النار ظلمًا لمن أصرَّ على إلقاء يده فيها بعد التحذير. لقد أرسل الله الرسل، وأنزل الآيات، ومنح العقل، وفتح باب التوبة؛ فمن أغلق الأبواب كلها على نفسه فقد تولَّى ظلمها بيديه.

الفصل الخامس والثلاثون

العُمْرُ كُلُّهُ حِينَ يَبْدُو سَاعَةً

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ

خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)

العمر الذي يبدو طويلاً ونحن في أوله، وينفتح أمام الشاب كأنه بحر بلا شاطئ، سينكمش عند الحشر حتى يبدو ساعة من نهار. تذوب السنون، وتتهاوى المسافات بين الطفولة والشيخوخة، ويشعر الإنسان أن الدنيا كلها لم تكن إلا وقفة قصيرة على باب الأبد.

إن إحساسنا بالزمن يتغير بحسب الموضع الذي ننظر منه. ونحن داخل الحياة تبدو اللحظة ممتدة، ويبدو الانتظار ثقیلاً، وتبدو المشروعات الدنيوية كأنها تستحق أن تُمنح العمر كله. أما حين يقف الإنسان على عتبة الخلود، فإن مئة عام لا تكاد تساوي شيئاً.

(يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ). يعرف بعضهم بعضًا؛ تلك الوجوه التي شاركتهم أيام الدنيا لا تزال حاضرة لحظةً، لكن المعرفة لم تعد تمنحهم الأنس القديم. ما نفع أن تعرف من حولك وقد جاء كل امرئ يحمل مصيره؟ وما نفع العلاقات التي ملأت الحياة إن لم تكن عونًا على النجاة؟ قد يعرف الظالم وجه مظلومه، والتابع وجه من أضله، والصديق وجه صاحبه الذي زين له الخطيئة. هناك لا تكون المعرفة كلها فرحًا؛ بعضها يصبح شاهدًا، وبعضها حسرةً، وبعضها خصومةً تنتظر الفصل.

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ). الخسارة ليست فقط أن يفوتهم نعيم، بل أن يكتشفوا أنهم أنفقوا رأس مالهم الوحيد . العمر . في طريق لا يصل. عاشوا للساعة القصيرة، وخسروا اليوم الذي لا ينتهي. وما كانوا مهتدين؛ لأن من لا يرى النهاية لا يستطيع أن يضع الأشياء في مواضعها. الإيمان بالآخرة ليس معلومةً تُضاف إلى العقيدة، بل هو الضوء الذي يُعيد ترتيب الحياة كلها: يصغر به ما يفنى، ويعظم به ما يبقى.

الفصل السادس والثلاثون

الْوَعْدُ الَّذِي لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى عَيْنِ تَرَاهُ

(وَأَمَّا نُورِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ)

قد يرى النبي ﷺ في حياته بعض ما وُعد به المكذبون، وقد يُتوفى قبل أن يراه كله. لكن عدم مشاهدة تمام الوعد لا يعني أن الوعد تعطل؛ فالحقيقة لا تحتاج إلى أن تراها عين بشرية كي تقع.

وهذه الآية تحرر القلب من عبادة المشاهدة. كثيرًا ما يريد الإنسان أن يرى ثمرة موقفه قبل أن يموت، وأن يشهد سقوط الباطل الذي قاومه، وانتصار الحق الذي بذل له. وقد لا يحدث ذلك في المساحة الزمنية القصيرة التي يعيشها، فهل يعني أن جهده ضاع؟

كلا. إن صاحب الرسالة يعمل في زمنه، لكن الرسالة تعمل في أزمنة لا يراها. قد يزرع إنسان شجرة يستظل بها من لم يولدوا بعد، وقد يقول كلمة حق ثم يموت، وتظل الكلمة تشق طريقها في التاريخ.

(فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ). هذه هي الضمانة الكبرى؛ ليست العبرة أن تدركهم العقوبة تحت بصرك، بل أنهم لا يفلتون من المرجع. قد يخرج الظالم من محكمة الأرض، وقد ينجو من ذاكرة الناس، لكنه لا يخرج من ملك الله. (ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ). وما شهده الله لا يحتاج إلى أن يوثقه التاريخ كي يبقى. قد تُحذف الجرائم من السجلات، ويُصنع للمجرمين تاريخ مزيف، لكن نسخة الحقيقة محفوظة في علم لا يصيبه محو ولا تزوير. ولذلك يستطيع المؤمن أن يموت مطمئناً قبل اكتمال المشهد؛ لأنه لم يودع قضيته عند الزمن، بل عند رب الزمن.

الفصل السابع والثلاثون

رَسُولٌ لِّكُلِّ أُمَّةٍ وَمِيزَانٌ لَا يَمِيلُ

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

لم يترك الله أمة بلا بيان؛ فللهداية في تاريخ الإنسان قوافل طويلة من الرسل، تختلف ألسنتهم وأقوامهم، لكن النور الذي يحملونه واحد: اعبدوا الله، واتقوه، وأقيموا حياتكم على الحق.

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ). إنها رحمة تسبق المحاسبة؛ فالله لا يؤاخذ الناس قبل أن يقيم عليهم الحجة. لا يفاجئهم بالحكم دون تعريف، ولا يطالبهم بطريق لم يدلهم عليه.

والرسول ليس ناقل معلومات فحسب؛ إنه شاهد حيّ على إمكان أن يعيش الإنسان وفق مراد الله. يترجم الوحي إلى سيرة، حتى لا يقول أحد إن القيم جميلة في الكلام مستحيلة في الواقع.

(فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ). يأتي الرسول بالحق، فتتمايز
المواقف، ثم يأتي القضاء العادل بعد تمام البيان. لا يُعامل المكذب كمن
بحث فلم يبلغه الدليل، ولا يُسوَّى من بذل نفسه للحق بمن حاربه.
(وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ). تتكرر هذه الحقيقة لأن القلب يحتاج إليها وهو يرى
اضطراب موازين الدنيا. قد يظن المظلوم أن العدالة تأخرت حتى
ضاعت، لكن ما يتأخر في حساب البشر لا يغيب عن حساب الله.
القسط الإلهي لا ينظر إلى النتائج الظاهرة وحدها؛ ينظر إلى النيات
والقدرة والفرص والضغوط وما خفي من المجاهدات. قد يتساوى
عملان في الصورة، ويكون بينهما عند الله كما بين السماء والأرض؛
لأن أحدهما خرج من قلب مخلص، والآخر خرج طلبًا للمظهر.

الفصل الثامن والثلاثون

السَّاعَةُ الَّتِي يُرِيدُونَ تَحْوِيلَهَا إِلَى تَحَدٍّ

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتُخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

سألوا: (مَتَى هَذَا الْوَعْدُ)؟ لكن السؤال لم يخرج من قلب مستعد، بل من روح ساخرة تجعل التأخر حجة على عدم الوقوع. يريدون تحويل الغيب إلى موعد يحدّدونه، والرسول إلى منفذ لما يقترحون.

ويأتي الجواب ليقرر حقيقة العبودية: (لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ). إذا كان الرسول ﷺ، وهو أكرم الخلق على الله، لا يملك لنفسه استقلالاً نفعا ولا ضرراً، فكيف بمن دونه؟ وكيف يُتخذ مخلوق متصرفاً في الغيب من دون الله؟

إن كمال النبي ﷺ ليس في خروجه عن العبودية، بل في بلوغه ذروتها. هو لا يملك خزائن الله، ولا يحدد مواقيت الوعد، وإنما يتبع ما يوحى إليه.

(لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ). للأفراد آجال، وللأمم كذلك؛ تولد وتصدق وتُمنح

الفرص، ثم إذا استنفدت أسباب بقائها الأخلاقي والحضاري جاء أجلها.

قد تبدو في لحظة السقوط قوية في ظاهرها، لكن روحها تكون قد ماتت

قبل أن يسقط جسدها.

(إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتُخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ). الموعد ليس

فوضى، ولا يقع قبل اكتمال الحكمة ولا بعدها. نحن نرى الأحداث مفاجئة

لأننا لا نرى جذورها الخفية، أما في علم الله فكل شيء يسير إلى توقيته

الدقيق.

وهذه الحقيقة تمنح القلب توازناً عجيباً: لا يستعجل سقوط الباطل

حتى يقنط، ولا يغتر بامتداد عمره حتى ييأس؛ يعلم أن للأجل ساعة،

وأن الساعة لا تتقدم لصرخة مستعجل ولا تتأخر لحيلة قوي.

الفصل التاسع والثلاثون

مَاذَا يَسْتَعْجِلُ الْمُجْرِمُونَ؟

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ

﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ءَالَنْ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾

يسخرون من العذاب ويستعجلونه، لأنهم يتعاملون معه كفكرة بعيدة لا كحقيقة يمكن أن تطرق أبوابهم. لكن الآية تقرب المشهد: ماذا لو أتاكم ليلاً وأنتم غارقون في النوم، أو نهاراً وأنتم منتشرون في أعمالكم؟

الليل والنهار يستوعبان كل أوقات الإنسان؛ فلا ساعة خارجة عن سلطان الله، ولا وقت يمنح حصانةً من أمره. قد يأتي العذاب حين تكون المدن هادئة، أو حين تمتلئ الأسواق؛ فالذين يطمنون إلى استقرار اللحظة ينسون أن اللحظة نفسها واقفة على أمر الله.

(مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ)؟ أي جزء منه يظنون أنه يصلح

للاستعجال؟ إنهم يستدعون بألسنتهم ما لو رأوا أوائله لذابت سخرتهم، ويطلبون البرهان في صورة عقوبة، مع أن الرحمة أرسلت إليهم البرهان

في صورة آيات.

ثم إذا وقع العذاب قالوا: آمنا. لكن الإيمان بعد انغلاق أبواب الاختيار ليس هو الإيمان الذي أراده الله. قيمة الإيمان أنه موقف حرّ في زمن الغيب، لا اعتراف اضطراري بعد أن تصير الحقيقة مرئية لا يمكن إنكارها.

(ءَالَّنْ)؟ كلمة قصيرة تحمل ثقل الحسرة كلها. الآن، بعد أن انتهى زمن العمل؟ الآن، وقد كنتم تستعجلون ما أنتم فيه؟ إنها ليست مجرد إشارة إلى الوقت، بل كشفٌ لفداحة التأخر.

كم من «الآن» لا تنفع صاحبها لأنها جاءت بعد فوات موضعها! كلمة اعتذار بعد رحيل من ظلم، وتوبة عند حضور الموت بعد عمرٍ من الإصرار، واعتراف بالحقيقة بعد أن سقطت القدرة على مقاومتها.

إن باب التوبة مفتوح اليوم، وهذه أعظم نعمة؛ لأن «الآن» التي تملكها ما زالت قادرةً على تغيير المصير. فلا يؤخر الإنسان عودته حتى تصير كلمة «الآن» توبيخًا بدل أن تكون بداية.

الفصل الأربعون

عَذَابُ الْخُلْدِ وَثَمَرَةُ الْكَسْبِ

(ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ

تَكْسِبُونَ)

(ذُوقُوا)؛ لأن ما كان في الدنيا خبرًا صار تجربةً مباشرة. كانوا يسمعون

وصف العذاب فيمرّ على آذانهم، أما الآن فقد صار حقيقة تُذاق، فلا

مسافة بينهم وبين نتيجة أعمالهم.

(عَذَابُ الْخُلْدِ). لفظ الخلود وحده يهز القلب؛ فالآلام الدنيا، مهما اشتدت،

يبقى في النفس أنها ستنتهي بالموت أو الفرج. أما العذاب حين لا يلوح

وراءه انتهاء، فكل لحظة منه تحمل ثقل الأبد.

ومع ذلك لا يظلمهم الله: (هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)؟ أعمالهم

هي التي سبقتهم وصنعت لهم هذا المصير. لم يكن العذاب مفاجأةً بلا

إنذار؛ سبقه كتاب ورسول، وعقل وفطرة، ومواعظ في النعم

والمصائب، وأبواب للتوبة ظلت مفتوحة.

(تَكْسِبُونَ) توحى بالاستمرار؛ لم تكن زلَّةً عابرة ندموا عليها، بل مسارًا كانوا يجددونه. فالخطر ليس في أن يسقط الإنسان . وكل بني آدم خطأ . وإنما أن يحوّل السقوط إلى مقام، وأن يدافع عن الخطأ حتى يصير جزءًا من هويته.

والتائب لا يدخل في هذا الإصرار؛ لأن التوبة لا تمحو الفعل من الصحيفة فحسب، بل تقطع السلسلة التي كانت تقود إلى المصير. ما دام القلب يستطيع أن يندم ويعود، فالمستقبل لم يُغلق بعد.

الفصل الحادي والأربعون

(إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ)

(وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلُوبُ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

يسألون النبي ﷺ: أحق هو؟ أحق هذا القرآن، وهذا البعث، وهذا الحساب، وهذا الوعد؟

ويأتي الجواب مشبعًا بالتوكيد: (إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ). ليس تخمينًا، ولا احتمالًا راجحًا، ولا أملًا يعزّي النفس؛ إنه حق. ويقسم النبي ﷺ بربه، كأن اليقين يملأ العبارة حتى لا يترك فيها فراغًا لشك.

(وَرَبِّي)؛ لم يقل والله فحسب، بل استحضر معنى الربوبية: وربي الذي خلقي ورباني وأوحى إليّ وتولى أمري، إن هذا لحق. المعرفة هنا ليست باردة؛ إنها معرفة ممزوجة بالقرب والعبودية والثقة.

يحتاج القلب المعاصر إلى أن يسمع هذه النبذة وسط عالم يحول الحقائق الكبرى إلى احتمالات ضبابية، ويعامل الغيب كأنه وهم قديم.

القرآن يقول له: ليست الآخرة فكرةً تحت الاختبار، بل أنت الذي تعيش الآن زمن اختبارك للآخرة.

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ). لا تستطيعون الإفلات من سلطان الله، ولا الهرب إلى مكان لا يبلغكم فيه أمره، ولا تعطيل الموعد بتكذيبكم. إنكار الحقيقة لا يلغيها؛ كما أن إغماض العين لا يطفئ الشمس.

كم من إنسان يتعامل مع الموت كأن تجاهله يؤجله، ومع الحساب كأن عدم التفكير فيه يعفيه! لكن الحق لا يتوقف على اعترافنا. الحكمة أن نرتب حياتنا وفق الحقيقة قبل أن تأتي الحقيقة فتفرض نفسها علينا.

الفصل الثاني والأربعون

لَوْ اَمْتَلَكْتَ النَّفْسُ الْأَرْضَ كُلَّهَا

(وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۖ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ ۖ مَا

رَأَوْا الْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۖ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

لو امتلكت النفس الظالمة ما في الأرض كله - ذهبها ومدنها وكنوزها وسلطانها - لقدّمته في لحظة ليفتدي به من العذاب. هناك تنكشف القيمة الحقيقية للأشياء التي قضى الإنسان عمره يجمعها.

ما في الأرض كله، لا بعضه، يصبح قليلاً أمام نجاة واحدة. فما بال الإنسان يبيع اليوم نجاته بجزء ضئيل من تلك الأرض؟ بمال محدود، أو منصب زائل، أو شهوة تمرّ ثم تتركه وحيداً مع أثرها؟

إنها مفارقة الخسران: يعصي المرء ربه ليكسب شيئاً من الدنيا، ثم يتمنى أن يملك الدنيا كلها كي يتخلص من عاقبة ما كسب.

(وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لِمَا رَأَوْا الْعَذَابَ). بلغت الندامة حدًّا لا تتسع له الكلمات؛

حُبست في الصدور من هول ما رأوا. وربما أسرها بعضهم ذهولًا، أو

لأن زمن الاعتراف الذي ينفع قد انقضى.

الندامة ألم على ماضٍ لا يمكن استعادته. وفي الدنيا، ما دامت الحياة

باقية، يمكن للندم أن يتحول إلى توبة وعمل؛ أما في الآخرة فهو نار

أخرى تضاف إلى العذاب: أن يرى الإنسان الطريق الذي كان يستطيع

أن يسلكه، والباب الذي ظل مفتوحًا فلم يدخله.

ومع هول المشهد: (وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ). لا يزيد

العذاب على الاستحقاق، ولا تضيع حسنة وسط الحساب. العدالة كاملة

حتى مع من ظلم؛ لأن الله لا تدفعه الخصومة إلى الجور، تعالى سبحانه

عن ذلك.

الفصل الثالث والأربعون

الْمَلِكُ الَّذِي لَمْ يَخْرُجْ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ

(أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

(أَلَا): تنبيهٌ يهز الغافل: انتهوا إلى الحقيقة التي تغيب عنكم وهي تحيط

بكم. (إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ).

كل شيء له: الأجساد والأرواح، الملوك وممالكهم، الأغنياء وما جمعوا، النجوم في مداراتها، والذرات في خفائها. نحن لا نملك على الحقيقة، وإنما نُملِكُ زمناً، ثم نترك ما ظنناه لنا ونمضي.

حتى ذاتك التي تقول عنها «أنا» ملكٌ لله؛ خلقها من عدم، وأقامها بنعمه، وحدد أجلها. وكل حرية منحك إياها تتحرك داخل ملكه، لا خارجه. تستطيع أن تعصيه، لكنك تعصيه بالقوة التي وهبها لك، وعلى الأرض التي خلقها، وتحت السماء التي رفعها؛ فأبي حلم أوسع من أن يمهلك وأنت لا تخرج لحظةً عن سلطانه؟

ولأن الملك كله له، كان وعده حقًا. لا يعجزه عن الوفاء مانع، ولا ينازعه في تنفيذ حكمه شريك. وعود البشر قد تتعطل لأن قدرتهم أقصر من نياتهم، أما الله فإذا وعد فقد صدر الوعد عن علم مطلق وقدرة لا يحدّها شيء.

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ). قد يعرفون العبارة، لكنهم لا يعلمونها العلم الذي يملأ القلب ويعيد ترتيب الحياة. فلو علم الإنسان حقًا أن وعد الله حق، لما باع الباقي بالفاني، ولما اضطرب أمام تأخر النصر، ولما استوحش في طريق الطاعة.

(هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ). الحياة ليست اشتعالًا ذاتيًا في الجسد، والموت ليس انفلاتًا من التدبير؛ كلاهما فعل الله. هو الذي أخرجك إلى هذه الدنيا في الوقت الذي شاء، وسيخرجك منها في الوقت الذي شاء، ثم يعيدك للحياة التي لا موت بعدها.

(وَأَلَيْهِ تُرْجَعُونَ). ليست العودة احتمالًا، بل مسارًا يجري بنا في كل لحظة. كل يوم يمر لا يبعدنا عن الأمس فقط، بل يقربنا من الله.

فطوبى لمن كان رجوعه إليه في الدنيا بالتوبة قبل أن يكون رجوعه
إليه في الآخرة بالحساب؛ ومن عرف أن النهاية عند الله، جعل طريقه
كله إلى الله.

الفصل الرابع والأربعون

حِينَ يَنْزِلُ الْقُرْآنُ إِلَى مَوْضِعِ الْأَلَمِ

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ)

ينادي الله الناس جميعاً، لا طائفةً بعينها؛ لأن القرآن خطابٌ للإنسان من حيث هو إنسان: بضعفه وخوفه، وشهوته وعقله، وقلقه واشتياقه إلى المعنى. مهما اختلفت اللغات والبيئات، فإن في الصدر البشري جراحاً متشابهة، وأسئلةً قديمة لا يجيب عنها إلا خبر السماء.

(قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ). لم تأتكم موعظة من متعالٍ لا يعرف ضعفكم، بل من ربكم؛ الذي خلق نفوسكم، ويعلم مسارها الخفية، ويعرف ما يصلحها كما يعرف الصانع سرَّ صنعته. ولذلك لا يضع

القرآن يده على موضعٍ إلا أصاب أصل الداء. والموعظة ليست توبيخاً جافاً، بل كلمة تدخل القلب فتوقظه من غفلته، وتريه عاقبة الطريق قبل أن يبلغها. إنها رحمة تناديك قبل الهاوية، وتقول لك: انتبه، فما زالت في الطريق فسحة للعودة.

ثم يرتفع وصف القرآن من الموعظة إلى الشفاء: (وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي
 الصُّدُورِ). لم يقل لما في الأجساد، وإن كان القرآن كله بركة، بل خصّ
 الصدور؛ لأن فيها أمراضاً قد لا تظهر في تحليل ولا صورة، لكنها
 تفسد الحياة كلها: الشك الذي ينهش اليقين، والحسد الذي يحول نعم
 الآخرين إلى ألم، والكبر الذي يعمي القلب عن الحق، والخوف الذي
 يربط الروح بالأسباب، والشهوة التي تستعبد الإرادة، والحقد الذي
 يجعل الإنسان يحمل النار في صدره ويظن أنه يعاقب بها غيره.
 القرآن لا يسكن هذه الأمراض مؤقتاً، بل يعيد بناء التصور الذي
 ولدت منه. يعالج الخوف بتعريفك بالمديّر، والحسد بتعريفك بالرازق،
 والكبر بتذكيرك بأصلك ومصيرك، والحزن بفتح نافذة الآخرة،
 والوحشة بتقريبك من الله.

لكن الدواء لا يشفي من يضعه على الرف، ولا القرآن يشفي قلباً
 يكتفي بتزيين صوته بالتلاوة ثم يمنع معانيه من الدخول. الشفاء يبدأ
 حين يقرأ الإنسان القرآن باحثاً عن مرضه، لا عن أمراض الآخرين؛
 وحين يسأل كل آية: ماذا تريد أن تغير فيّ؟

(وَهْدَى)؛ فالشفاء يزيل العلة، والهداية تدلّ على الطريق بعد زوالها. لا يكفي أن تتحرر من الباطل إن لم تعرف أين تمضي، ولا أن يهدأ اضطرابك إن لم ترتبط حياتك بغاية.

ثم هو (وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ). تبدأ الرحلة بنداء الناس، لكن الرحمة الخاصة ينالها من آمن وفتح قلبه. الشمس تشرق على النوافذ كلها، غير أن الغرفة التي أُحْكَمَ إغلاقها لا يدخلها الضوء. والقرآن رحمة معروضة للعالمين، لكن المؤمن هو الذي يرفع الحجاب عنها في نفسه.

الفصل الخامس والأربعون

الْفَرَحُ الَّذِي لَا تَسْتَطِيعُ الدُّنْيَا أَنْ تَسْلُبَهُ

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ - فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

بعد أن وصف القرآن بالموعة والشفاء والهدى والرحمة، أمر المؤمنين أن يفرحوا. فالإيمان ليس طريقاً محاطاً بالحزن كما يتخيله من لم يذق معناه، بل هو منبع الفرح الأعرق؛ الفرح بأنك عرفت الله، وأنت لست ضائعاً في كون أصم، وأن لك كتاباً يهديك، ورباً يسمعك، وداراً تنتظرك.

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا). كأن الآية تعيد توجيه طاقة الفرح في الإنسان. فالناس

يفرحون بما يجمعون: مالا، ومكانة، وأتباعاً، ومقتنيات؛ لكن كل ذلك

فرح مهدد، لأن ما يجمع يمكن أن يتفرق، وما يملك يمكن أن يُنتزع.

أما فضل الله ورحمته فلا يستطيع لص أن يسرقهما، ولا مرض أن يبطلهما، ولا موت أن يقطعهما؛ بل إن الموت نفسه يفتح للمؤمن باب اكتمالهما.

(هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ). لم يقل خير مما يملكون؛ لأن كلمة (يَجْمَعُونَ)

تكشف الحركة المحمومة التي تبتلع الأعمار. يجمعون ولا يشبعون،

ويكدسون ولا يطمئنون، وكلما اتسعت الخزائن اتسع معها الخوف عليها.

قد يملك إنسان مالاً قليلاً وقلباً عامراً بالقرآن، فيكون أغنى من صاحب خزائن لا يعرف لماذا يعيش. فالغنى الحقيقي ليس كثرة ما في اليد، بل وجود ما يكفي القلب إذا فرغت اليد.

وليس في الآية دعوة إلى احتقار الرزق، بل إلى ترتيب درجات الفرح. افرح بالنعمة، لكن لا تجعل فرحك بها أعظم من فرحك بالمنعم. اشكر المال، لكن لا تجعل كسبه يطغى على الهدى الذي يدلّك كيف تكسبه وفيما تنفقه.

إن أعظم ما يمكن أن يُعطاه الإنسان ليس شيئاً يضيفه إلى ممتلكاته، بل نوراً يضيفه إلى روحه. فالممتلكات تبقى خارجه، أما القرآن فيعيد خلقه من الداخل.

الفصل السادس والأربعون

حِينَ يَصْنَعُ الْإِنْسَانُ شَرِيْعَتَهُ مِنْ هَوَاهُ

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَاللَّهُ

أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ)

الرزق نازلٌ من الله، لكن الإنسان يتعامل معه أحيانًا كأنه مالكه المطلق؛ فيخترع من عنده حدود الحلال والحرام، ويمنح نفسه سلطة لم يأذن بها الله.

(مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ). عبّر بالإنزال لأن أصول الأرزاق تعود إلى

السماء؛ حتى ما يخرج من الأرض لا يخرج إلا بماء أنزله الله، وضوء

أرسله، وقانون أودعه في الخلق. فالرزق هبة قبل أن يكون كسبًا.

لكن المشركين حرّموا من الأنعام والحرث ما شاءت أوهامهم،

وأحلّوا ما وافق أهواءهم، ثم نسبوا هذا التقسيم إلى الله. والخطر هنا

ليس مجرد خطأ في الطعام، بل اغتصاب حق التشريع؛ أن يقول

الإنسان عن شيء: هذا حكم الله، من غير برهان من الله.

(ءَاللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ)؟ سؤال يضع كل دعوى دينية أمام ميزانها: أين الإذن؟

ليس كل ما لبس ثوب القداسة مقدسًا، ولا كل عادة قديمة شريعةً، ولا كل

تشدد ورعًا. قد يحرم الإنسان ما أحل الله فيحسب نفسه أكثر تقوى، بينما

حقيقة التقوى أن يقف حيث أوقفه النص، فلا يزيد على الله كما لا ينقص

من أمره.

(أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ)؟ ما أعظم خطر الكلمة حين تُنسب إلى الله! أن تقول:

أراد الله، أو حكم الله، أو هذا دين الله، بلا علم؛ فالكذب على البشر يفسد

علاقة، أما الكذب على الله فيفسد الدين نفسه في وعي الناس.

والآية تحرر الإنسان من عبودية الأعراف التي تلبس لباس الوحي،

كما تحرره من عبودية الشهوات التي تريد تحليل كل شيء. فلا التحريم

بالتشهي دين، ولا الإباحة بالتشهي حرية؛ بل العبودية أن تتلقى حدودك

ممن خلقك ويعلم ما يصلحك.

الفصل السابع والأربعون

مَا ظَنَّ مَنْ يَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟

(وَمَا ظَنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى

النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ)

ما ظنهم بيوم القيامة؟ كيف يتصورون موقفهم حين يقفون بين يدي
من نسبوا إليه ما لم يقل؟ وبأي لسان يعتذرون عن كلمات قدّموها
للناس على أنها وحي، وهي من صنع أهوائهم؟

السؤال لا ينتظر جواباً؛ إنه يوقظ الرهبة. فالافتراء على الله يدل
على خلل في تصور صاحبه للقاء: لو كان يستشعر أنه سيقف بين
يدي الله، لما أطلق لسانه في دينه بلا علم.

إن الجرأة على الفتوى بغير علم، وتطويع النصوص للمصالح،
وتحويل الرغبات البشرية إلى أحكام إلهية، ليست أخطاءً فكرية
فحسب؛ إنها مواقف أخلاقية من الله، تكشف مقدار الهيبة التي بقيت
في القلب.

ثم تقول الآية: (إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ). من فضله أنه لم يتركهم لأهوائهم المتصارعة، بل بيّن لهم الحلال والحرام، وفتح لهم من الطيبات أبواباً واسعة. الأصل في عطائه السعة، وما حرّم إلا ما يفسد أرواحهم أو أجسادهم أو مجتمعاتهم.

لكن أكثرهم لا يشكرون؛ يشكرون النعمة أحياناً باستعمالها، ولا يشكرونها بطاعة المنعم. وقد يظن أحدهم أن الشكر كلمة تُقال بعد الطعام، بينما الشكر الأعمق أن يستخدم رزق الله وفق مراد الله.

عدم الشكر هو أن ترى العطاء ولا ترى الفضل، وأن تنتفع بالقانون الإلهي ثم تنسب الاستقامة إلى ذاتك، وأن تضيق بالمحرمات القليلة حتى تنسى المباحات الواسعة.

الفصل الثامن والأربعون

مَا مِنْ لَحْظَةٍ تَخْرُجُ عَنْ شَهُودِ اللَّهِ

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا

كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي

الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

هذه آية المعية الشاهدة، التي تجعل حياة الإنسان كلها تحت نور العلم

الإلهي. لا شأن يخرج عن علم الله، ولا تلاوة تُنسى، ولا عمل يضيع،

ولا لحظة يظن صاحبها أنه كان فيها وحده إلا وكان الله شاهداً عليه.

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ). أيّ شأن: في خلوتك أو بين الناس، في قوتك أو

ضعفك، حين تبدو ثابتاً وفي داخلك معركة لا يراها أحد. كل ما يشغلك

حاضر في علم الله قبل أن تصوغه كلمات.

(وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ). كل حرف تتلوه معلوم، وكل وقفة تأمل، وكل

دمعة انحدرت عند آية، وكل مجاهدة للنفس كي تبقى مع القرآن. قد تقرأ

وحدك في آخر الليل، فلا يسمع صوتك أحد، لكن تلاوتك واقعة في شهود

(وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ). حين تدخلون

في العمل وتنهمكون فيه، يكون الله شاهداً منذ بدايته إلى نهايته؛ يرى الحركة ونيتها، والظاهر وباطنه، وما رآه الناس وما أخفاه القلب.

وهذا الشهود يجمع للمؤمن بين المهابة والأنس. مهابة تمنعه من المعصية حين تغيب عيون الخلق؛ فما قيمة جدار يغلقه على نفسه إذا كان علم الله لا تحجبه الجدران؟ وأنس يملأه حين يعمل خيراً لا يراه أحد؛ فما حاجته إلى تصفيق الناس إذا كان الله شاهداً؟

(وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ). الذرة التي لا تراها العين لا تغيب، وما هو أصغر منها وما هو أكبر مكتوب. فإذا كان أصغر الموجودات محفوظاً في العلم، فكيف بدمعة المظلوم؟ وكيف بدعوة المنكسر؟ وكيف

بخطوة سارها العبد إلى الله ولم يلتفت إليها أحد؟ لا تقل: عملي صغير لا قيمة له؛ فقد ذكر الله ما هو أصغر من الذرة. ولا تقل: خطيئتي خفية لا تُرى؛ فما يعزب عنه سبحانه شيء. ميزان الله لا يحتقر الخير لصغره، ولا يغفل الشر لخفائه.

(إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ). الوجود ليس ذاكرةً مثقوبة تضيع منها التفاصيل، بل كتاب محفوظ. وما دام كل شيء مكتوبًا، فسيأتي يوم تُستعاد فيه الحقيقة كاملة، بلا نقص ولا نسيان.

الفصل التاسع والأربعون

أَوْلِيَاءُ اللَّهِ: أَمْنُ الْقَلْبِ فِي عَالَمِ الْخَوْفِ

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا

وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٢﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ

لِكَلِمَتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

مرة أخرى تبدأ الآية بـ(أَلَا)، كأنها تستدعي القلوب من ضجيج

الخوف: انتبهوا، إن في هذا العالم المضطرب أناساً منحهم الله أمناً لا تمنحه الحصون.

(أَوْلِيَاءُ اللَّهِ). يا لها من نسبة! أن يكون العبد الضعيف ولياً لله، قريباً منه

بالمحبة والطاعة، متولياً لأمره، متولياً بعنايته. وليست الولاية لقباً

غامضاً تحتكره طبقة، ولا دعوى ترفع صاحبها فوق الشريعة؛ فقد

فسرتها الآية نفسها: (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ).

كل مؤمن صادق يتقي الله له نصيب من هذه الولاية بقدر إيمانه

وتقواه. الطريق إليها ليس خرق العادات، بل استقامة العبودية؛ وليس

ادعاء المقامات، بل صدق القلب وخشية الله في السر والعلن.

(لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ). الخوف يتجه إلى المستقبل، والحزن يتعلق بالماضي؛ فجاءت البشارة لتحررهم من سطوة الزمن في جهتيه. لا خوف عليهم فيما يستقبلون من أمر الآخرة، ولا يحزنون على ما تركوا وراءهم من الدنيا.

لا يعني ذلك أن المؤمن لا تعتريه مشاعر الخوف والحزن في الحياة؛ فالأنبياء أنفسهم حزنوا وخافوا الخوف البشري الطبيعي. لكنه لا يصبح أسيرًا لهما، لأن وراء خوفه ثقة، وتحت حزنه يقينًا، وفي آخر دموعه بابًا إلى الله.

الولي قد تضيق به الدنيا، لكنه لا يضيع؛ وقد يُهزم في مقياس اللحظة، لكنه لا ينكسر في ميزان المصير. يستمد أمانه من الجهة التي لا يصل إليها التغيير؛ فكل ما في الأرض يمكن أن يهتز، أما وعد الله فلا يتبدل.

(لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ). لهم في الدنيا بشائر يرسلها الله إلى قلوبهم: رؤيا صالحة، ومحبة يقذفها لهم في قلوب عباده، وسكينة عند البلاء، وتثبيت في موضع الفتنة، وإحساس عميق بأن الطريق، على مشقته، ينتهي إلى رضوان الله. ثم لهم في الآخرة بشارة الملائكة،

(لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ). قد تتبدل الظروف والوجوه والقوى، لكن الكلمة الإلهية لا تتبدل. ومن علق قلبه بما لا يتبدل لم تقتلع سكينته تقلبات ما يتبدل.

(ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ). ليس الفوز أن يعرفك الناس وليًّا، بل أن يعرفك الله عبدًا صادقًا؛ وليس أن يُذكر اسمك في الأرض، بل أن تُكتب لك البشري في السماء.

الفصل الخمسون

الْعِزَّةُ الَّتِي لَا يَنْقُصُهَا قَوْلُ الْمُكَذِّبِينَ

(وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

لم يقل الله لنبيه ﷺ: لا تسمع قولهم، فقد كان يسمعه؛ ولا: إن كلامهم لا يؤلم، فقد كان بشراً كريم القلب. لكنه قال: (وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ)؛ لا تسمح لكلماتهم أن تستقر في قلبك حتى تتحول إلى حزن يعوقك عن الطريق.

الكلمة قد لا تكسر عظماً، لكنها قد تترك في الروح جرحاً طويلاً. وقد كان قولهم افتراءً وسخريةً واتهاماً، يصوبونه إلى أظهر إنسان. فجاء العلاج لا بمجرد نفي أقوالهم، بل بإعادة القلب إلى مصدر العزة: (إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا).

إذا كانت العزة كلها لله، فمن طلبها في رضاه لم يذله كلام الناس، ومن طلبها عند الناس ظل عبداً لتقلب ألسنتهم. اليوم يمدحونه فيرتفع، وغداً يذمونه فينهار؛ لأنه وضع قيمته في أيديهم لا تثبت على حال.

المؤمن لا يستمد مكانته من تصفيق الجمهور، بل من انتسابه إلى الحق. قد يقف وحده، لكن وحدته مع الله امتلاء؛ وقد تحيط به الجموع، لكن عزته لا تزيد بعددهم.

(هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ). يسمع ما يقولون، فلا تحتاج أن تنقل إليه شكواك ليعلمها، ويعلم ما تتركه كلماتهم في صدرك. ويسمع كذلك جوابك وصبرك، ويعلم أنك كظمت ألمك وفاءً للرسالة. وفي الاسمين عزاءً وتهديد: عزاء للمؤمن لأن أذاه مسموع معلوم، وتهديد للمسيء لأن كلمته لم تذهب في الهواء كما ظن. فما دام الله قد سمع، فلا يحتاج الحق إلى ضجيج كي يحميه.

الفصل الحادي والخمسون

مَلِكٌ وَاحِدٌ وَشُرَكَاءُ صَنَعَهُمُ الظَّنُّ

(أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمُوتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ

دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)

لله (مَنْ) في السماوات والأرض: الملائكة والإنس والجن وكل

عاقِل، كما أن له (مَا) فيهما من المخلوقات. الجميع عبيده، فلا يوجد

في ملكه من يخرج عن سلطان الملك ثم يصبح شريكاً له.

إن المخلوق الذي يُدعى من دون الله لا يملك نفسه، فكيف يملك

مصائر الداعين؟ وما أعجب أن يتعلق مملوك بمملوك، ويغفل الاثنان

عن المالك!

(وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ). إنهم لا يتبعون شركاء

حقيقيين؛ إذ لا وجود لهم أصلاً بهذا الوصف. إنما يتبعون أسماءً أطلقوها،

وصوراً رسموها، وسلطاناً تخيلوه.

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ). وفي قضية المصير لا يكفي الظن. كيف يسلم

الإنسان روحه الأبدية لافتراض لم ينزل به سلطان؟ وكيف يخاطر ببقاء

الله اعتمادًا على حكاية ورثها أو وهم استراح إليه؟

(وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)؛ يقدرون بلا علم، ويكذبون فيما يزعمون.

والخرص محاولة ملء الفراغ المعرفي بالتخمين، ثم الحديث عن

التخمين بلسان اليقين.

التوحيد يحرر العقل من هذا كله؛ يرده إلى برهان واضح: الخلق لله،

والملك لله، والتدبير لله، فالدعاء والرجاء والخوف والعبادة لله وحده.

الفصل الثاني والخمسون

لَيْلٌ يَضُمُّ التَّعَبَ وَنَهَارٌ يَفْتَحُ أَبْوَابَ السَّعْيِ

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ لَيْلًا لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

لم يقل: خلق الليل والنهار فحسب، بل (جَعَلَ لَكُمْ)؛ كأن تعاقبهما هدية مهياة لحاجات الإنسان. الليل سكن، والنهار ميدان إِبصار وحركة؛ والروح والجسد كلاهما يعيشان بهذا الإيقاع.

(الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ). يغطي الظلام الأشياء فيخفّ اندفاع الحواس نحوها، وتهدأ الأسواق، وتعود المخلوقات إلى أعشاشها. كأن الله يطوي ضجيج العالم كل مساء ليرد الإنسان إلى ضعفه الطبيعي، فيغلق عينيه ويسلم نفسه للنوم.

والنوم عبودية صامتة؛ يضع القوي حراسته جانباً، ويغيب العالم عن وعيه، ويبقى محفوظاً بقدرة الله. كل صباح يستيقظ فيه المرء هو نجاة جديدة لم ينتبه إليها لكثرة تكرارها.

(وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا). نسب الإبصار إلى النهار لما يملؤه من ضياء، فكأن النهار نفسه عين مفتوحة. فيه تنتشر الخطى، وتطلب الأرزاق، وتُبْنى الحياة. ولو كان الليل دائماً لتعطلت الحركة، ولو كان النهار دائماً لاحتُرقت الأعصاب من امتداد اليقظة. الحياة المتوازنة تحتاج إلى سكون وحركة، خلوة ومشاركة، صلاة وسعي. من أراد أن يحول عمره كله إلى نهار من العمل استنزف روحه، ومن أراده كله ليلاً من السكون عطّل أمانته.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ). يسمعون النداء المختبئ في التكرار. فالليل والنهار آيتان تمران علينا كل يوم، لكن الألفة تجعل أعظم المعجزات خلفية لا نلتفت إليها. والمؤمن يسمع في إقبال الليل صوتاً يقول: مهما طال نهارك فلا بد أن تسكن، ويسمع في انبلاج الفجر: مهما طال ظلامك فالنور يعرف طريق العودة.

الفصل الثالث والخمسون

الْغَنِيُّ الَّذِي لَا يَحْتَاجُ إِلَى وَلَدٍ

(قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي

الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

ما إن تذكر الآية قولهم حتى تعقبه بالتنزيه: (سُبْحَنَهُ). كأن العقيدة

الصحيحة لا تحتل أن تبقى هذه الكلمة في السمع دون أن تُغسل فوراً بالتسبيح.

تعالى الله عن الولد؛ فالولد إنما يُطلب لحاجة: امتدادٍ بعد فناء، أو عونٍ عند ضعف، أو أنسٍ يدفع الوحشة. والله حي لا يموت، قوي لا يضعف، غني لا يفتقر، أحدٌ صمد لا مثيل له ولا شبيهه.

(هُوَ الْغَنِيُّ). هذه الكلمة وحدها تهدم أصل الافتراء. الغني المطلق لا

يحتاج إلى إضافة شيء إلى ذاته، ولا إلى من يعينه في ملكه. وكل ما سواه فقير إليه، قائم بإمداده في كل لحظة.

(لَهُ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ). من زعموهم أولادًا لله هم عبيده

وملكه، والعبودية لله أشرف لهم من النسبة الباطلة التي اخترعها البشر.

ثم يطالبهم القرآن بالسلطان: (إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطٰنٍ هٰذَا)؛ لا حجة

عندكم. والعقيدة لا تُبنى على الخيال العاطفي ولا على الموروث الذي لم يُمحّص؛ لأنها حديث عن الله، وأعظم مقامات العلم.

(أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)؟ الجهل لا يمنع بعض الناس من الكلام،

بل قد يدفعهم إلى مزيد من الثقة؛ لأن من عرف قدر المسألة هابها، ومن

جهل عظمتها خفّ لسانه فيها.

ومن تعظيم الله أن يتعلم المؤمن مواضع الصمت؛ فلا ينسب إليه إلا

ما نسب به إلى نفسه أو أخبر به رسوله ﷺ، ويثبت له ما أثبتته بلا تحريف

ولا تمثيل، وينزّره عن مشابهة خلقه: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ

الْبَصِيرُ).

الفصل الرابع والخمسون

رَبِّحْ قَصِيرٌ يَنْتَهِي إِلَى خُسْرَانٍ طَوِيلٍ

(قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ

إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)

قد يربح المفترون أتباعاً، أو مكانةً، أو سلطاناً؛ وقد يجد الكذب على الله سوقاً بين الناس لأنهم يريدون من يبارك أهواءهم باسم الدين. لكن القرآن يحسم الحساب من نهايته: (لَا يُفْلِحُونَ).

قد ينجحون، لكنهم لا يفلحون. فالنجاح قد يكون قصير النظر؛ أن تصل إلى غرضك ولو خسرت نفسك. أما الفلاح فهو سلامة المصير كله، ولا فلاح لمن جعل الوحي سلعةً لمصلحته.

(مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا). اختصرت الآية كل ما قد يجمعونه في كلمة واحدة: متاع.

شيء قليل يُستعمل مدةً ثم ينتهي. قد يبدو كثيراً لمن يقيس داخل حدود الدنيا، لكنه حين يوضع أمام الخلود يصبح أقل من لحظة.

(ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ). هذه الـ(ثُمَّ) تطوي بين طرفيها العمر كله؛ حياةً قد تمتد عقوداً، ثم رجوع. وما أسرع ما تتحول الألقاب والأموال والمجالس إلى أشياء بقيت خلف صاحبها، ويدخل وحده إلى المصير الذي صنعه.

(ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ). جاء السبب واضحاً: بما كانوا يكفرون. لم يظلمهم الله، وإنما أذاقهم ثمرة ما أصروا عليه.

وهكذا تعيد السورة الميزان إلى القلب: لا تحكم على صاحب الباطل من لحظة تمتعه، ولا على صاحب الحق من لحظة ابتلائه. انظر إلى المرجع؛ فهناك تتكلم الحقيقة بعدما تصمت الزينة، ويظهر الفلاح بعدما ينتهي المتاع.

الفصل الخامس والخمسون

نُوحٌ: حِينَ يَقِفُ رَجُلٌ وَاحِدٌ أَمَامَ أُمَّةٍ

(وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ۖ يٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي
وَتَذِكْرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا

يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ)

تنتقل السورة من محاجة المكذبين في مكة إلى مشهد أقدم، لكنه يحمل الروح نفسها: نبي يقف في وجه مجتمع طال عليه الأمد حتى تحولت ضلالاته إلى تقاليد، وصارت الأصنام جزءاً من ذاكرته، وأصبح صوت التوحيد في سمعه غريباً مع أنه أقدم حقيقة في الوجود.

(وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ). لم يقل خبره، بل (نَبَأً)؛ فالنبا خبر عظيم وراءه دلالة ومصير. قصة نوح ليست حكايةً عن سفينة وطوفان فحسب، بل درسٌ في عمر الدعوة، وفي صبر الحق حين تتراكم أمامه قرون الرفض، وفي الإنسان الذي يمكن أن يقف وحده ولا يكون ضعيفاً؛ لأن الله معه.

يقول لقومه: (يُقَوْم). لم ينزع منهم نسبتهم إليه مع طول أذاهم، ولم يخاطبهم بلغة المنتقم، بل بلغة من لا يزال يحمل لهم بقية رجاء. الداعية الصادق قد يرفض باطل قومه كله، لكنه لا يفقد رحمته بهم؛ لأنه يريد أن يهدم الضلال لينقذ الإنسان، لا أن يهدم الإنسان مع ضلاله.

(إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ). شقّ عليهم بقاؤه بينهم، وثقل عليهم تذكيره؛ فالكلمة التي تتكرر أمام القلب المعاند تتحول إلى مرآة لا يريد النظر فيها. لم يكن مقام نوح ثقیلاً لذاته، وإنما لأن حضوره الدائم يذكرهم بأن في حياتهم باطلاً لم يستطيعوا منحه شرعية الحقيقة. أقام فيهم زمناً طويلاً لا يملّ من الدعوة، بينما ملّوا هم من سماع الحق قبل أن يملّ هو من عرضه. وهذه مفارقة أهل الرسالات: قد يتعب المبطل من وجود الداعية، لكن الداعية يستمد من الله قدرةً على مواصلة النداء.

ثم تأتي الكلمة التي قلبت موازين القوة: (فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ). لم يقل: فاعتمدت على كثرة أتباعي، فلم يكن أتباعه كثيرين؛ ولا على قبيلتي وسلاحي وخطتي، بل على الله.

التوكل هنا ليس سكون الخائف، بل شجاعة العارف. إنه اليقين الذي يجعل رجلاً واحداً يقول لقوم كامل: اجمعوا أمركم، واستدعوا شركاءكم، وأحكموا خطتكم، ولا تجعلوا أمركم ملتبساً عليكم، ثم نفذوا ما تريدون ولا تمهلون.

أي قلب كان يحمل نوح؟ قلب يرى القوة البشرية كلها من جهة، ثم يرى الله من الجهة الأخرى، فلا يجد مجالاً للمقارنة. إن الناس يخافون اجتماع خصومهم لأنهم يحسبون القوى بعدد الأجساد والأسلحة، أما النبي فيحسب القوة بمصدرها؛ وما دام متصلاً بالقوي العزيز، فإن اجتماع العالم عليه لا يجعله وحيداً.

(ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً). لا تتستروا، ولا تترددوا، ولا تتركوا في خطتكم موضعاً غامضاً. إنه يتحداهم أن يبلغوا أقصى قدرتهم؛ لأن المتوكل لا يستخف بالأسباب، لكنه يعلم أن الأسباب كلها لا تعمل إلا بإذن مسيبيها.

لم يكن نوح واثقاً بنفسه في مواجهة قومه، بل واثقاً بربه. والثقة بالنفس وحدها قد تنهار حين تتجاوز المحنة طاقتها، أما الثقة بالله فتعترف بضعف النفس ثم تستمد من القوة التي لا تنفد.

الفصل السادس والخمسون

الدَّعْوَةُ الَّتِي لَا تَطْلُبُ أَجْرًا مِنَ النَّاسِ

(فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ
مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

من دلائل صدق الرسالة أن حاملها لا يجعلها سلماً إلى أموال الناس.
يقول نوح: إن توليتم، فلستم قد خسرتم ما لاً دفعتموه إليّ، ولم أطلب
منكم أجراً حتى تظنوا أن وراء إلحاحي منفعةً شخصية.

(فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ). لقد كان يدعوهم لينقذهم، لا ليأخذ منهم. يبذل عمره
ولا يطالبهم بثمن، ويحمل همهم وهم يواجهونه بالإساءة. وتلك أخلاق
النبوة: عطاء لا يبتز المحتاج إلى الهداية، ونصح لا يتحول إلى تجارة
بالقلوب.

إن الكلمة تفقد شيئاً من نورها حين يشعر السامع أن قائلها يريد بها
ما في يده. والإخلاص يمنح الخطاب قوة لا تصنعها البلاغة وحدها؛
فالناس قد لا يعرفون سرائر المتكلم، لكنهم يشعرون غالباً بحرارة
الكلمة التي خرجت من قلب لا يطلب منهم جزاءً ولا شكوراً.

(إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ). حين يودع الداعية أجره عند الله يتحرر من تقلب الجمهور. لا يزداد صدقًا إذا مدحوه، ولا يترك الرسالة إذا ذمّوه، ولا يخفف الحقيقة طلبًا لرضاهم. إنهم لا يملكون أجره، ولذلك لا يملكون شراء صمته.

وقد يتأخر الأجر، ولا يرى الداعية في حياته ثمرة جهده، لكنه يعلم أن ما كان على الله لا يضيع. يكفي أن الله رأى الليالي الطويلة، والدموع الخفية، والأبواب التي أغلقت، والمحاولات التي حسبها الناس فاشلة.

(وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ). ليست مهمته أن يحقق النصر وفق الموعد الذي يريده، بل أن يبقى مسلمًا لله في كل الأحوال. إن آمنوا لم يخرجهم فرح النجاح عن العبودية، وإن كذبوا لم يخرجهم ألم الرفض عن الطاعة.

أحيانًا ينشغل صاحب الرسالة بإسلام الآخرين حتى ينسى اختبار إسلامه هو أمام رفضهم: هل يبقى صابرًا؟ هل يعدل مع خصومه؟ هل يصدق مع الله حين لا يرى ثمرة؟ نوح مأمور أولًا أن يكون من المسلمين؛ أما القلوب الأخرى فلها حسابها مع الله.

الفصل السابع والخمسون

السَّفِينَةُ الَّتِي حَمَلَتْ الْمُسْتَقْبَلَ

(فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ)

تختصر الآية زمناً طويلاً في كلمة: (فَكَذَّبُوهُ). وراء هذه الكلمة قرون من الدعوة، وأجيال مرّت، وأبواب طُرقت، وحجج عُرضت، وسخرية تكررت. لكن القرآن يطوي التفاصيل ليصل بنا إلى العاقبة؛ فليست كثرة الوقائع هي المهمة، بل الحقيقة التي انتهت إليها.

(فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ). كانت السفينة في أعين السّاحرين قطعة خشب تُبنى بعيداً عن منطق اللحظة، لكنها كانت عند الله وعاء النجاة. كم من طاعة تبدو في وقتها غريبة، ثم يثبت الزمن أنها كانت السفينة الوحيدة!

السفينة لم تكن قويةً أمام طوفان يغمر الأرض، لكن قوتها لم تكن في خشبها؛ كانت في الأمر الذي حملها. والأسباب الصغيرة إذا تعلقت

بِإِذْنِ اللَّهِ حَمَلْتَ مَا تَعْجِزُ عَنْهُ الْأَسْبَابُ الْكُبْرَى، بَيْنَمَا الْجِبَالُ نَفْسَهَا لَا تَحْمِي مِنْ كُتُبِ اللَّهِ عَلَيْهِ الْغَرَقُ.

(وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِيفَةً). الَّذِينَ كَانُوا بِالْأَمْسِ قَلَّةً مُسْتَضْعَفَةً صَارُوا وَرَثَةَ الْأَرْضِ. لَمْ يَكُنِ الْمُسْتَقْبَلُ لِمَنْ مَلَأُوا الْحَاضِرَ ضَجِيحًا، بَلْ لِمَنْ حَمَلُوا بَذْرَةَ الْحَقِّ بِصَبْرٍ. الْبَاطِلُ قَدْ يَمْتَلِكُ اللَّحْظَةَ، لَكِنَّهُ لَا يَمْلِكُ أَنْ يَضْمَنَ الْغَدَ. كَمْ احْتَقَرُ قَوْمُ نُوحٍ الْمُؤْمِنِينَ لِأَنْ عَدَدَهُمْ قَلِيلٌ وَمَكَانَتُهُمْ ضَعِيفَةٌ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْإِنْسَانِيَّةَ سَتَبْدَأُ بَعْدَ الطُّوفَانِ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ احْتَقَرُوهُمْ. الْقِيَمَةُ لَا تُقَاسُ بِمَا يَحْتَلُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ مَسَاحَةِ الْحَاضِرِ، بَلْ بِمَا يَحْمِلُهُ مِنْ صِلَاحٍ لِلْمُسْتَقْبَلِ.

(وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا). الْمَاءُ نَفْسُهُ الَّذِي حَمَلَ سَفِينَةَ الْمُؤْمِنِينَ أَغْرَقَ الْمَكْذِبِينَ؛ فَالْشَيْءُ الْوَاحِدُ يَكُونُ جَنْدَ رَحْمَةٍ لِقَوْمٍ وَجَنْدَ عِقَابٍ لِآخَرِينَ. لَيْسَتْ النِّجَاةُ فِي طَبِيعَةِ الْمَاءِ أَوْ الْخَشَبِ، بَلْ فِي الْعِلَاقَةِ بِاللَّهِ. (فَإَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ). لَا تَنْظُرْ فَقَطْ إِلَى بَدَايَةِ الْمُوَاجَهَةِ؛ فِي الْبَدَايَةِ كَانَ نُوحٌ وَحْدَهُ تَقْرِيبًا وَكَانُوا أُمَّةً. انْظُرْ إِلَى آخِرِ الصَّفْحَةِ: أَيْنَ ذَهَبَ الضَّجِيحُ، وَمِنْ بَقِي حَامِلًا لِلْحَيَاةِ؟

التاريخ إذا قُرئ من منتصفه قد يخدع، أما إذا قُرئ من عاقبته انكشف
ميزان الله.

الفصل الثامن والخمسون

قُلُوبٌ تُغْلِقُ أَبْوَابَهَا مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا

بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ)

لم تتوقف رحمة الله بعد الطوفان؛ توالى الرسل، وجاء كل رسول إلى قومه بالبينات. كأن تاريخ البشرية، في وجهه المضيء، سلسلة من نداءات السماء التي لا تملّ من استعادة الإنسان كلما ضل.

لكن هناك قلوباً رفضت أول الآيات، ثم صار رفضها الأول حاجزاً أمام الآيات التالية: (فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ). التكذيب ليس لحظة تنتهي؛ إنه يترك أثراً في بنية القلب. حين يرد الإنسان الحق أول مرة حفاظاً على هواه، يحتاج في المرة التالية إلى عناد أكبر كي يحافظ على موقفه السابق.

وقد يصبح الإنسان أسيراً لتاريخه؛ لا يرفض الدليل لأنه ضعيف، بل لأن قبوله يقتضي أن يعترف بأنه كان مخطئاً. والكبر يفضل أحياناً

الاستمرار في طريق مهلك على العودة التي تحفظ صاحبه؛ لأن الرجوع يجرح صورته أمام نفسه.

(كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ). الطبع خاتمة اعتداء متكرر، لا ظلم ابتدائي يقع على قلب بريء. اعتدوا على الفطرة، وعلى حدود الله، وعلى الرسل، حتى صار القلب الذي خُلِقَ لينفتح للنور مغلقاً عليه. كل معصية يصرّ عليها الإنسان تضيف طبقةً إلى الحجاب، وكل توبة صادقة تزيل شيئاً منه. لذلك لا ينبغي أن يستهين المرء بأول «لا» يقولها للحق؛ فقد تكون بداية طريق ينتهي إلى عجز القلب عن قول «نعم».

والنجاة في أن يبقى الإنسان قابلاً للمراجعة، متواضعاً أمام الدليل، قادراً على أن يقول: أخطأت. ليست العصمة في ألا يضل المرء لحظة، بل في ألا يجعل الضلال كرامةً شخصية يدافع عنها.

الفصل التاسع والخمسون

مُوسَى وَهَارُونُ أَمَامَ هَرَمِ الطُّغْيَانِ

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا

فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ)

يتقدم موسى وهارون نحو أعظم قوة سياسية في زمانهما. ليسا قائدَي جيش، ولا صاحبي مال وسلطان؛ يحملان آيات الله فقط. وعلى الجانب الآخر فرعون، والملأ، والقصور، والجنود، وجهاز كامل صُمم ليجعل الطاغية يبدو في أعين الناس أكبر من أن يُقاوم.

لكن القرآن لا ينبهر بالمشهد الخارجي. لا يصف أولاً عروشهم وجيوشهم، بل يكشف حقيقتهم الباطنة: (فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ).

الاستكبار هو المرض الذي يحوّل القوة من نعمة إلى لعنة؛ أن يرى الإنسان نفسه أكبر من الحق، وأن يحسب اعترافه به انتقاصاً من مكانته. لم تكن آيات موسى غامضة، لكن فرعون وملأه نظروا إليها

من فوق عروشهم، ومن ينظر إلى الحق باستعلاء لا يراه وإن كان أمام عينيهِ.

(إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ). فالطغيان ليس فردًا وحده؛ حوله دائمًا ملأٌ يبرر، ويزين، وينقل الأوامر، ويصنع من نزوات الحاكم سياسة، ومن أكاذيبه حقائق رسمية. قد يكون الطاغية رأس الجريمة، لكن الجسد الذي ينفذها يتكون من كثيرين رضوا أن يبيعوا ضمائرهم بالقرب منه. وكانوا قومًا مجرمين قبل مجيء الآيات؛ فجاءت الآيات تكشف الإجرام المستتر في نظامهم. والوحي حين يدخل مجتمعًا لا يضيف طقوسًا إلى حياته فحسب، بل يفضح البنية التي بُني عليها الظلم؛ ولهذا يخافه المستكبرون.

لقد أرسل الله رجلين أعزّلين إلى مركز القوة ليعلم التاريخ أن الحق لا يقيس فرصته بعدد الجنود. موسى وهارون لا يحملان إلا الآيات، لكنها آيات من يملك فرعون والملا والنيل والأرض التي يقفون عليها.

الفصل الستون

حِينَ يُسَمَّى الْحَقُّ سِحْرًا

(فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١﴾ قَالَ مُوسَىٰ

أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّحَرُونَ)

تقول الآية: (جَاءَهُمُ الْحَقُّ)؛ لم يجئهم رأي موسى، ولا طموحه الشخصي، بل الحق من عند الله. ومع ذلك لم يناقشوه بوصفه حقاً، بل منحوه اسماً مشوهاً: (سِحْرٌ مُبِينٌ).

الطغيان بارع في حرب الأسماء. إذا عجز عن إبطال الحقيقة غير اسمها؛ يسمي الإصلاح فوضى، والعدل خطراً، والعبودية لله تهديداً للدولة، ويمنح الظلم أسماء الاستقرار والمصلحة. يعلم أن كثيراً من الناس لا يتعاملون مع حقائق الأشياء، بل مع اللافتات المعلقة عليها.

قالوا (سِحْرٌ) لأنهم رأوا أثر الآية ولم يستطيعوا تفسيره بما يحفظ هيبتهم. ولو قالوا معجزة لسقط ادعائهم، فاختراروا اسماً يعترف بالقوة وينكر مصدرها.

ويرد موسى بدهشة المستنكر: (أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ)؟ كأن فداحة الجريمة تظهر في سرعة ردهم؛ لم يتأملوا، ولم يسألوا، بل كانت التهمة جاهزة قبل وصول الدليل. فالسلطة التي تخشى الحقيقة لا تبحث فيها، وإنما تبحث منذ اللحظة الأولى عن طريقة لتجريمها.

(أَسِحْرٌ هَذَا)؟ إن السحر يقوم على التخيل والتليس، أما آيات الله فتكشف الوهم وتعيد الأشياء إلى حقيقتها. السحر يستعبد الإدراك، والوحي يحرره؛ السحر يخدم الساحر، والرسالة لا يطلب حاملها أجراً ولا سلطاناً لنفسه.

(وَلَا يُفْلِحُ السَّحَرُونَ). قد يخدعون الأبصار لحظة، وقد يثيرون الرهبة، لكنهم لا يفلحون؛ لأن بنيان الخديعة يحمل نهايته فيه. والحق لا يحتاج إلا أن يبقى حتى تنقشع غمامة التخيل.

الفصل الحادي والستون

كُلَّمَا عَجَزَ الطُّغْيَانُ عَنِ الْحُجَّةِ اتَّهَمَ النَّيَّةَ

(قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي

الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ)

لم يستطيعوا مواجهة البرهان، فانتقلوا إلى اتهام المقصد: أنتما لا تريدان الحق، بل تريدان انتزاع السلطة. إنها حيلة قديمة؛ حين يعجز الخصم عن نقض فكرتك، يخترع لك نيةً خبيثة ثم يحاكمك إليها.

(أَجِئْنَا لِنُلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا). جعلوا مجرد الانصراف عن

موروث الآباء جريمةً، ولم يسألوا: أكان ما عليه الآباء حقاً؟ إن طول

عمر الفكرة لا يمنحها العصمة، وكثرة الأجيال التي تكررها لا تحولها

إلى وحي.

غير أن الموروث لا يسكن العقل وحده؛ يمتزج بالهوية والعاطفة

وذاكرة الجماعة، فيشعر الإنسان أن نقده اعتداء عليه شخصياً. ولذلك

يحتاج طالب الحق إلى شجاعة يفصل بها احترام أسلافه عن تقديس

أخطائهم؛ فلا يهدر فضلهم، ولا يمنحهم العصمة.

ثم قالوا: (وَتَكُونُ لَكُمْ أَلْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ). والطريف المؤلم أن المتهمين لم يكونا صاحبي مُلك، بينما الذين أطلقوا التهمة هم أهل الكبرياء الفعلي. إن الطاغية يقرأ الآخرين من مرآة نفسه؛ لأنه لا يفهم دوافع تتجاوز حب السلطة، فيظن أن كل داعية إلى الحق ينافسه على ما يعشقه هو.

لم يستطع فرعون وملؤه تصور أن موسى يريد تحرير الناس لله، لا استعبادهم لنفسه. فالذي عاش عمره طالباً للعلو لا يصدق أن إنساناً يمكن أن يتحرك ابتغاء مرضاة الله.

(وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ). جاء الحكم قبل تمام النظر؛ لقد أعلنوا النتيجة التي يريدونها، ثم صار ما بعدها مجرد بحث عن المبررات. وحين يقرر القلب الرفض مسبقاً، يتحول العقل من طالب حقيقة إلى محامٍ عن الهوى.

الفصل الثاني والستون

السَّاحِرُ الْعَلِيمُ فِي خِدْمَةِ الْعَرْشِ

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿١٠٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ)

حين عجز فرعون عن رد آية موسى بالحجة، استدعى الخبراء في صناعة الوهم: (بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ). أراد أن يقابل الحقيقة بمشهد أكبر، وأن يغطي الآية بضجيج الاستعراض.

والطغيان لا يعيش بالقوة العارية وحدها؛ يحتاج إلى خبراء يجمّلونها، ويصنعون للناس صوراً تخالف الواقع، ويقلبون الهزيمة انتصاراً، والاستعباد حمايةً، والخوف محبة. لكل عرش سحرته، وإن تغيرت أسماء السحر وأدواته.

وصفهم بأنهم علماء في فنهم؛ فالمعرفة ليست فضيلةً مستقلة عن غايتها. قد يبلغ الإنسان درجة عالية من المهارة، ثم يضع علمه في خدمة الباطل. وعندئذ تصبح الموهبة التي كان يمكن أن تنفع الناس أداةً لإحكام خداعهم.

اجتمع السحرة، ووقفوا بما يحملونه من خبرة وثقة ودعم السلطة. أما موسى فقال: (الْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ). لم يخف من أن يبدأوا؛ لأن الحقيقة لا تخشى أن يمنح الباطل كل فرصته في الظهور.

ألقوا ما عندهم أمام الجموع، وبذلوا غاية صناعتهم. وكان موسى يعلم أن ما يقوم على التخييل لا يصمد أمام ما يقوم على أمر الله؛ قد يحتاج المشهد إلى لحظة ينفش فيها الباطل ريشه كله، ليكون سقوطه بعد ذلك أكشف.

الفصل الثالث والستون

(إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ)

(فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ

عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٠﴾ وَيَحِقُّ لِلَّهِ الْحَقُّ بِكَلِمَتِهِ ۖ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)

ألقى السحرة ما عندهم، فسمّى موسى الأشياء بأسمائها: (مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ). لم يخدعه حجم المشهد، ولا كثرة المشاركين، ولا انبهار الجمهور. ومن أعظم ثمار اليقين أن يحتفظ الإنسان بقدرته على التسمية الصحيحة حين يفرض الباطل معجمه على الجميع. ثم قال في ثبات: (إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ). لم يقل: سأبطله بقوتي؛ فموسى لا يدخل مع السحرة منافسةً في المهارة. إنها مواجهة بين سحرهم وأمر الله، ولذلك كانت النتيجة محسومة قبل أن تظهر للعيون.

(سَيُبْطِلُهُ): قد توجد مسافة زمنية قصيرة يلمع فيها السحر، وقد يظن الناظر أنه غلب؛ لكن بريق الباطل لا يغيّر مصيره. السين تحمل وعداً: دعوه يعرض ما عنده، فالله يقوده إلى لحظة الانكشاف.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ). قد يسمح له أن يقوم زمناً ابتلاءً، لكنه لا يمنحه الصلاح الذي يضمن البقاء والثمرة المباركة. كل مشروع فساد يحمل خللاً في بنيته، وإن بدا متماسكاً؛ لأن الله لا يمدّه بروح الإصلاح. يمكن للمفسد أن يجمع أدوات ضخمة، لكنه لا يستطيع أن يشتري البركة. يبني نظاماً على الخوف، ثم يستغرب لماذا ينهار عند أول اهتزاز؛ وينسج روايةً من الكذب، ثم يحتاج كل يوم إلى كذبة جديدة تحمي سابقتها، حتى يصبح البناء أثقل من أن يحمله.

(وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ). الحق حق في ذاته قبل أن ينتصر، لكن الله يظهره ويثبته ويكشف صدقه في الواقع. قد يمر بمراحل يبدو فيها ضعيفاً، لا لأن في جوهره ضعفاً، بل لأن الله يمتحن به القلوب ويبرئ له ساعته.

(وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ). كراهيتهم لا توقف الحقيقة، كما لا يمنع كاره الفجر الشمس من الطلوع. قد يقاومونها، ويشوهونها، ويحشدون السحرة في وجهها؛ لكنهم لا يملكون تغيير السنّة: السحر إلى بطلان، والحق إلى ظهور.

وهذه الآية ليست خبرًا عن عصا موسى وحدها؛ إنها طمأنينة لكل صاحب حق رأى حوله مصانع الوهم تعمل: لا تنبهر بكثرة ما ألقوا، ولا تجعل طول بقائه دليلًا على سلامته. قل بقلب موسى: (إِنَّ اللَّهَ سَيُبْرِئُهُ)؛ ثم اثبت على الحق حتى تأتي الكلمات الإلهية بموعدها.

الفصل الرابع والستون

الْفِتْيَةُ الَّذِينَ آمَنُوا تَحْتَ ظِلِّ فِرْعَوْنَ

(فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ

أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ)

بعد أن ظهر الحق وبطل السحر، لم تتحول الجماهير كلها إلى الإيمان. آمنت ذرية من القوم؛ جماعة قليلة من الشباب، امتلكت من حيوية الفطرة ما مكنها من رؤية الحقيقة خلف جدار الخوف.

(ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ). كثيراً ما يكون الشباب أسرع إلى الحق؛ لأن قيود المصالح لم تستحكم في أرواحهم بعد، ولأنهم لم يبنوا حول الخطأ تاريخاً طويلاً يخشون الاعتراف ببطلانه. ما زالت نفوسهم قابلةً لأن تبدأ من جديد.

أما أصحاب المكانة الراسخة، فقد يرون الدليل كما يراه غيرهم، لكنهم يرون خلفه المناصب التي ستضيع، والامتيازات التي ستسقط، والعلاقات التي ستتغير؛ فيصبح الإيمان عندهم ليس قضية عقلية فقط، بل كلفة اجتماعية يخشون دفعها.

أمن أولئك الفتية (عَلَى خَوْفٍ). لم يكن إيمانهم غيابًا للخوف، بل انتصارًا عليه. الشجاعة ليست أن يفقد الإنسان إحساسه بالخطر، وإنما أن يختار الحق مع إدراكه للخطر. كانت قلوبهم ترتجف، لكن أقدامهم بقيت في الطريق.

وكان الخوف من أن يفتنهم فرعون وملؤه؛ أي يعذبوهم ويردوهم عن إيمانهم. فالطغيان لا يكتفي بأن يكفر هو، بل يريد أن يحتكر ضمائر الناس؛ لا يزعه أن يعيش الإنسان صامتًا بلا موقف، لكن يزعه أن يقول: لي رب فوق فرعون.

(وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ). العلو ليس مجرد امتلاك السلطة، بل استخدامها لوضع النفس فوق الحق وفوق الناس. ينسى الطاغية أن الأرض التي علا فيها ليست له، وأنه مهما ارتفع فوق أعناق الخلق لا يخرج من كونه عبدًا يسير إلى قبر.

(وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ). أسرف في القتل والاستعباد والكبرياء، وتجاوز كل حد حتى توهم أن لا حد فوقه. والإسراف في السلطة أخطر من الإسراف في المال؛ لأنه يهدر أرواحًا وكرامات ومصائر أمة كاملة.

وبين علو فرعون وخوف الفتية تنبت نواة المستقبل. لم يكن التاريخ
يُصنع في القصر الذي امتلأ بالجنود، بل في تلك القلوب القليلة التي
قالت لله: آمنا، مع أنها تعرف ثمن الكلمة.

الفصل الخامس والستون

التَّوَكَّلْ: حِينَ يَنْتَقِلُ الْقَلْبُ مِنْ رَهْبَةٍ فِرْعَوْنَ إِلَى الثِّقَةِ بِرَبِّ مُوسَى

(وَقَالَ مُوسَى يُقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿١﴾

فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢﴾ وَنَجِّنَا

بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

لم يقل موسى لقومه: إن كنتم آمنتم بالله فلا تخافوا شيئاً؛ فالخوف البشري حاضر، وفرعون يملك أدوات البطش. لكنه دلّهم على القوة التي تمنع الخوف من أن يصبح سيد القرار: (فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا).

الإيمان يعرفك بالله، والتوكل يكشف مقدار حضور هذه المعرفة ساعة الخطر. قد يقول الإنسان إن الله قادر وهو في الأمن، لكن حين تتجمع المخاوف أمامه يتبين: هل هذه القدرة حقيقة حية في قلبه، أم معلومة ساكنة على لسانه؟

(إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ). أحاط موسى التوكل بالإيمان والإسلام؛ فكأنه الجسر الذي يصل المعرفة بالتسليم. من عرف الله حقًا أسند إليه قلبه، ومن أسلم وجهه له لم يجعل الأسباب أربابًا تتحكم في روحه.

والتوكل ليس تعطيلاً للأسباب؛ فموسى نفسه خطط وتحرك وقاد قومه. لكنه تحرير القلب من الاعتقاد بأن الأسباب مستقلة عن الله. تعمل بيدك ما تستطيع، ثم لا تسجد روحك لما صنعت يدك.

فقالوا فوراً: (عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا). قدّموا الجار والمجرور، ليكون الاعتماد عليه وحده. لم يقولوا: توكلنا على قوتنا ثم على الله، بل ردوا القلب كله إلى من يملك فرعون وقلبه وجنده والأرض التي يتحركون فيها.

ثم دعوا: (رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ). دعاء عميق تتعدد ظلاله: لا تسلطهم علينا فيفتنونا عن ديننا، ولا تمكنهم منا فيظنوا أن غلبتهم دليل على صحة باطلهم، ولا تجعل ضعفنا سبباً في ازديادهم طغياناً أو افتتاناً غيرنا بهم.

إن المؤمن لا يخاف الألم على جسده فقط؛ يخاف أن تتحول هزيمته إلى حجة زائفة للباطل، أو أن يضعف تحت العذاب فيشوّه صورة الإيمان. ولذلك يطلب من الله ثبات المعنى قبل نجاة البدن.

ثم قالوا: (وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ). لم يقولوا بأعمالنا ولا باستحقاقنا، بل برحمتك. يعلمون أن النجاة ليست أجرًا آليًا لقوتهم، وإنما فضلٌ من الله. يأخذون بالأسباب، لكنهم لا يتكلون على جدارتهم، ولا يدلّون على الله بإيمانهم.

ومن عرف أن نجاته بالرحمة ظلّ متواضعًا حتى وهو ثابت، ورحيمًا حتى وهو يواجه الظالم؛ لأنه لا يرى نفسه صاحب فضل، بل عبدًا احتضنته رحمة الله.

الفصل السادس والستون

الْبُيُوتُ الَّتِي تَحَوَّلَتْ إِلَى مَحَارِيبَ لِلْمُقَاوَمَةِ

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا

بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

حين ضاقت بهم ساحات الحياة العامة، وجعل فرعون الإيمان جريمةً، وجَّههم الله إلى البيوت. فالبيت المؤمن ليس مكاناً للنوم والطعام وحدهما؛ قد يصبح حصناً للهوية، ومدرسةً لليقين، ومحراباً تُصان فيه الأرواح من طغيان الخارج.

(أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا). اختاروا مواضع تستقرون فيها،

وتنظموا داخلها، وأقيموا مجتمع الإيمان في المساحة التي ما زالت

متاحة. إذا أغلق الطغيان أبواب الميادين، لا يعني أن الرسالة انتهت؛ فقد

يبدأ النهوض من غرفة صغيرة يجتمع فيها قلبان على ذكر الله.

(وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً). تتجه البيوت إلى الله، أو تصبح مواضع للصلاة حين مُنعوا من إظهارها. وبذلك تتحول العمارة المادية إلى عمارة روحية؛ لا تحدد قيمة البيت مساحة جدرانها، بل الجهة التي تتجه إليها القلوب داخله.

كم من بيت فخم لا يعرف أهله قبلة أرواحهم، فهو على سعته ضيق؛ وكم من بيت متواضع تتلى فيه آيات الله، فتتسع جدرانها لمعاني السماء! البيت هو الموضع الأول الذي تتكون فيه الأمة. إذا دخل الإيمان البيوت خرج منها جيل لا يستطيع الطاغية امتلاك ضميره، وإذا فرغت البيوت من المعنى لم تُغنِ كثرة المؤسسات؛ لأن الإنسان الذي لم يُبْنَ من الداخل يسهل أن تشتت فيه القوة من الخارج.

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ). في مواجهة منظومة فرعون، كان الأمر بالصلاة. قد يظن السطحي أن الصلاة انقطاع عن معركة الواقع، لكنها في الحقيقة بناءٌ للإنسان القادر على خوضها دون أن يتحول إلى نسخة من خصمه.

الصلاة تعيد ترتيب موازين القوة خمس مرات؛ يقف المؤمن فيها بين يدي رب فرعون، فيصغر فرعون في عينه. يسجد لله، فلا يبقى

في روحه موضع لسجود آخر. ومن لم يتحرر في محرابه من الخوف والهوى، يصعب أن يتحرر في الميدان.

ثم تأتي البشارة في قلب الحصار: (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ). لم يكن الواقع الظاهر يحمل أسباب الفرح: فرعون عالٍ، والمؤمنون خائفون، والبيوت تتحول إلى مصليات خفية. لكن البشارة لا تقرأ المشهد بعين الحاضر وحده؛ إنها ترى ما يدبره الله وراء الستار.

لذلك يستطيع المؤمن أن يتلقى البشارة وهو في أول طريق الشدة، لأن الوعد عنده لا ينتظر تحقق الصورة كي يكون يقيناً.

الفصل السابع والستون

زِينَةُ فِرْعَوْنَ الَّتِي صَارَتْ أَدَاةً لِلضَّلَالِ

(وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى

قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

ينظر موسى إلى فرعون وملئه، فيراهم محاطين بالزينة والأموال.

هنا يبرز السؤال الذي يمرّ بقلب كل مؤمن حين يرى أهل الباطل في

سعة: لماذا تُفتح لهم الخزائن، وهم يستخدمونها في حرب الحق؟

لكن موسى يبدأ باعتراف التوحيد: (إِنَّكَ ءَاتَيْتَ). لم تُخرج أموالهم

سلطانهم من ملك الله؛ فالذي آتاهم هو الله، ابتلاءً وإمهالاً، لا رضا عن

طغيانهم. العطاء الدنيوي لا يساوي شهادة محبة، كما أن المنع لا

يساوي شهادة غضب. الدنيا تُعطى لمن يحب الله ومن لا يحب، أما

الإيمان فلا يُمنح إلا لمن أراد به خيراً.

(زِينَةً وَأَمْوَالًا). الزينة تخطف العيون، والأموال تمنح القدرة؛ وإذا اجتمعت جاذبية الصورة وقوة الثروة أمكن للباطل أن يضلل كثيرين. فالناس لا يفتنون بالفكرة مجردةً دائماً، بل بما يحيط بها من قصور وأبهة ونفوذ.

(لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ). آل استخدام هذه النعم إلى الإضلال؛ حوّلوا المال من وسيلة إعمار إلى أداة استعباد، والزينة من نعمةٍ تشكر إلى ستارٍ يخفي العفن الداخلي. لم تفسدهم الأشياء في ذاتها، بل أفسدهم موقعها في قلوبهم وكيفية تسخيرها.

وحين بلغ طغيانهم غايته، وبعد أن قامت عليهم الحجة واستقر منهم الإصرار، دعا موسى: (رَبَّنَا آطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِيَّ). ليست دعوة غضب شخصي انتقاماً لجرح ذاتي، بل دعوة نبي علم بالوحي وقرائن الإصرار أن تلك الأموال لم تعد تنتج إلا الإفساد.

ثم دعا أن يُشد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم؛ أي يمضوا في الطريق الذي اختاروه حتى يلقوا عاقبته، بعد أن أغلقوا بأيديهم كل أبواب الرجوع. وهذا مقام لا يملكه كل غاضب من خصمه؛

إنه دعاء نبي بعد زمن من البيان و علم بحال قومه، فلا يجوز أن يتحول إلى ذريعة لقسوة النفوس أو استعجال الحكم على الناس.

إن موسى لا يحسد هم على المال؛ فهو يرى المال في ميزان المصير. النعمة التي تُستخدم في صد الناس عن الله ليست غنى، بل عبء مكدر ينتظر صاحبه.

الفصل الثامن والستون

الدُّعَاءُ الْمُسْتَجَابُ الَّذِي تَبِعَتْهُ سِنَوَاتٌ مِنَ الْإِسْتِقَامَةِ

(قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

كان موسى هو الذي نطق بالدعاء، وهارون يؤمن، فقال الله: (دَعْوَتُكُمَا). فالتأمين مشاركة في الدعاء، والقلوب إذا اجتمعت على الرجاء صارت أصواتها عند الله دعوة واحدة.

ثم جاءت البشارة: (قَدْ أُجِيبَتْ). انتهى الأمر في علم الله، وقُضي الوعد، لكن الواقع لم يتغير كله في اللحظة نفسها. ظل فرعون على عرشه زمنًا، وظلت الأسباب الظاهرة توحى بأن شيئًا لم يحدث.

هنا نتعلم أن الإجابة قد تقع في الغيب قبل أن تظهر في الشهادة. يدعو العبد، فيستجيب الله، ثم تبدأ المقادير رحلتها نحوه في توقيت الحكمة. وهو يرى الباب مغلقًا، بينما تكون مفاتيحه قد تحركت من جهات لا يعلمها.

ولذلك جاء بعد الإجابة أمرٌ لا يقل أهميةً عنها: (فَاسْتَقِيمَا). كأن الله يقول: استجيبت الدعوة، لكن عليكما أن تثبتا حتى يظهر أثرها. لا تجعلوا التأخر الظاهر يبدل موقفكما، ولا تستدرجا الزمن من وعده. ما أعجب أن يُؤمر الإنسان بالاستقامة بعد أن بُشّر بالإجابة! لأن الفترة بين الوعد وتحق

الفصل التاسع والستون

الطَّرِيقُ الَّذِي انْفَتَحَ فِي قَلْبِ الْبَحْرِ

(وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ ۚ بَنُوا إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

تجيء لحظة الإجابة أخيراً. البحر الذي بدا حاجزاً أمام المستضعفين صار طريقهم إلى النجاة، والطريق نفسه صار مصيدةً للطاغية. إن الله لا يحتاج دائماً إلى أن يزيل العائق؛ قد يحوله إلى ممر، ويجعل من قلب الاستحالة باباً.

(وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ). لم ينسب العبور إلى قوتهم، بل إلى فعله سبحانه. كانوا يسرون، لكن الله هو الذي جاوز بهم. وهذه هي العلاقة بين السعي والتوفيق: تخطو القدم، لكن الله يفتح الطريق ويحمل الخطوة إلى غايتها.

وما إن عبروا حتى تبعهم فرعون بجنوده (بَغْيًا وَعَدُوًّا). لم توقفه الآيات، ولا انشقاق البحر، ولا رؤية الطريق المعجز؛ لأن القلب

المستكبر يستطيع أن يرى المعجزة ثم يحولها إلى فرصة جديدة لمطاردة الحق.

دخل البحر وهو لا يزال أسير وهمه القديم: إذا سار بنو إسرائيل في هذا الطريق فسيسير هو أيضًا. لم يفهم أن الطريق لم يُفتح لكل عابر، بل فُتح بأمر الله لنجاة قوم وإهلاك آخرين. التشابه في الخطوات لا يعني التشابه في العناية.

ثم أدركه الغرق. التعبير يجعل الغرق كأنه طالبٌ لحق به بعد مطاردة طويلة. كان فرعون يطارد بني إسرائيل، ولم ير أن مصيره هو الذي يطارده من خلفه.

عندئذ قال: (ءَامَنْتُ). الآن فقط، بعد أن صار الماء فوقه، وبعد أن سقطت الجيوش، وبعد أن عجز العرش عن منحه نفسًا واحدًا. اعترف بالتوحيد، لكنه لم يعرف الله في العبارة إلا من خلال المؤمنين الذين كان يحتقرهم: (الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ - بَنُو إِسْرَءِيلَ).

يا للمفارقة! الذين استعبدتهم صار إيمانهم تعريفاً له بربه في آخر لحظاته، لكن الاعتراف جاء حين انتهى زمن الاختيار. لم يكن إيمان محبة وتسليم، بل صرخة غريق رأى الحقيقة قهراً.

قال: (وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)، بعد عمر أراد فيه أن يكون الناس من المستسلمين له. لم يعرف مقام العبودية إلا حين انتزع منه كل مظهر للربوبية الزائفة.

الفصل السبعون

(عَالَيْنَ): الْكَلِمَةُ الَّتِي جَاءَتْ بَعْدَ انْتِهَاءِ الْوَقْتِ

(عَالَيْنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

(عَالَيْنَ)؟ أتؤمن الآن، وقد صار الغيب شهادة، والوعيد واقعاً، والموت محيطاً؟ أين كان هذا الإيمان حين جاءك موسى بالآيات، وحين رأيت العصا واليد، وحين توالى العلامات، وحين انفتح أمامك باب الرجوع مرةً بعد مرة؟

إن المشكلة لم تكن في أن فرعون لم يعرف، بل في أنه أخر خضوعه حتى لم يعد خضوعاً اختيارياً. الإيمان الذي ينجي هو أن تقول «أمنت» وأنت قادر على أن تعصي، وأن تختار الله حين تغريك الدنيا بغيره. أما بعد سقوط القدرة كلها، فقد انتهى الميدان الذي يمنح الاختيار قيمته.

(وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ). كلمة (قَبْلُ) تحمل تاريخاً كاملاً من الجرائم: قتل الأبناء، واستحياء النساء، واستعباد بني إسرائيل، وتكذيب الآيات، وادعاء الربوبية. لم تكن زلةً أعقبها ندامة، بل سيرةً من العصيان

(وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ). لم يكن فسادُه شأنًا شخصيًّا؛ لقد حوَّله إلى نظام، وجعل الدولة أداةً له، وربَّى المَلَأَ على خدمته، وفرض على المجتمع أن يعيش داخل كذِبته.

هناك فرق بين عاصٍ تغلبه نفسه ثم يعود منكسرًا، ومفسد يجعل معصيته مشروعًا، ويدعو الناس إليها، ويعاقب من يرفضها. الأول ما زال في قلبه موضع للتوبة، أما الثاني فيحارب النور الذي يمكن أن يعيده.

وما دام الإنسان يتنفس قبل الغرغرة، فإن «الآن» يمكن أن تكون أجمل كلمة في حياته: الآن أتوب، الآن أعود، الآن أصلح ما أفسدت. لكن تأجيلها يحولها من بداية نجاة إلى سؤال توبيخ: (ءَالَّنْ)؟

الفصل الحادي والسبعون

جَسَدُ الطَّاغِيَةِ حِينَ تَحَوَّلَ إِلَى آيَةٍ

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ
ءَايَتِنَا لَغَفُلُونَ)

لم ينجُ فرعون من الغرق، وإنما نُجِّي بدنه من أن يضيع في أعماق البحر؛ أخرج جسده ليكون علامة، حتى يرى الذين عرفوه أنه مات حقًا، وأن من ادعى العلو والربوبية لم يستطع أن يدفع عن رثتيه الماء.

كان جسده يومًا محاطًا بالحرس والثياب والتيجان، يخشاه الناس، ويقفون بعيدًا عنه؛ ثم صار جسدًا لا يملك أن يوارى نفسه. هكذا يجرد الموت الإنسان من كل ما أضافته إليه الدنيا، ويرده إلى طبيئته الأولى.

(لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً). أراد أن يكون فوق الناس، فجعله الله علامة ينظر إليها من بعده؛ لا علامة على العظمة، بل على نهاية العظمة حين تنفصل عن العبودية. سعى إلى تخليد سلطانه، فبقي ذكره شاهدًا على هزيمته.

إن بقاء الأثر لا يعني دائماً نجاح صاحبه. قد يبقى اسم الطاغية طويلاً، لكن بقاءه يكون لعنةً تاريخيةً لا مجداً. وليس السؤال: هل سيذكرك الناس؟ بل: بأي معنى سيذكر اسمك، وأي حقيقة سيشهد عليها أترك؟

(وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَفُلُونَ). حتى الآية الظاهرة قد تمر عليها العيون ولا تستيقظ. يرى الناس نهاية الطغاة ثم يبني طاغية جديد عرشه بالطريقة نفسها، ويرى البشر أجساد الموتى ثم يعيشون كأن الموت استثناء لا يبلغهم. المشكلة ليست نقص الآيات؛ فالتاريخ ممتلئ بالأجساد والتيجان المحطمة. المشكلة قلبٌ يرى الحادثة ولا يعبر منها إلى السنّة، ويتأمل نهاية غيره كأنها لا تحمل رسالةً إليه.

الفصل الثاني والسبعون

مُبَوَّأُ الصِّدْقِ... ثُمَّ اخْتِلَافُ مَا بَعْدَ الْعِلْمِ

(وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مُبَوَّأً صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا
حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ)

بعد الخوف جاء التمكين، وبعد البحر جاء القرار، وبعد مطاردة
فرعون جاء (مُبَوَّأً صِدْقٍ)؛ مقامًا صالحًا كريمًا تستقيم فيه الحياة. فالذي
أخرجهم من بيوت الذل لم يتركهم في العراء، بل أنزلهم منزلاً يليق
بنعمة النجاة.

(وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ). لم تكن النجاة مجرد إخراج من الألم؛ أعقبها
رزق طيب. والله حين يغلق عهدًا من العذاب قد يفتح بعده من النعم ما
يجعل القلب يدرك أن المنعطف المؤلم كان ممرًا إلى سعة لم يكن يراها.
لكن الابتلاء لا ينتهي دائمًا بانتهاء الشدة؛ قد يبدأ بعد النعمة امتحانٌ
أدق. ففي وقت الخوف تجمعهم الحاجة إلى النجاة، أما حين يأتي الأمن
والرزق فتظهر أمراض النفوس واختلاف الأهواء.

(فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ). لم يكن اختلافهم كله نتيجة غياب المعرفة؛ جاءهم العلم، ثم اختلفوا بعده. وهذه أشد صور الاختلاف خطراً؛ أن تكون الحقيقة حاضرة، لكن البغي والمصلحة والتنافس تحول بينها وبين اجتماع القلوب عليها.

العلم وحده لا يعصم صاحبه إذا لم تزكُ نفسه. قد يعرف الإنسان النص ثم يستخدم معرفته في الانتصار لذاته، ويحول الدليل من مصباح يهتدي به إلى سلاح يخاصم به. وما أكثر ما يبدأ الخلاف باسم الحقيقة، بينما تسكن في أعماقه رغبة في العلو أو الغلبة.

إن الجهل يفرق الناس لأنهم لا يرون الطريق، لكن البغي بعد العلم يفرقهم وهم يرونه؛ ولذلك يكون الجرح أعمق والحجة أتم.

(إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ). قد تتشابك الأقوال في الدنيا، ويدّعي كل فريق أنه حارس الحقيقة، لكن يوم القيامة تُعرض القلوب مع الحجج، وتنكشف النيات التي كانت ترتدي ثياب العلم.

الله وحده يعلم من أخطأ وهو صادق في طلب الحق، ومن عرف الحق ثم حرّفه، ومن كان خلافه اجتهداً، ومن كان خلافه بغياً. ولذلك كان القضاء النهائي له، لا لعصبية الفرق ولا لصخب المتجادلين.

ومن النجاة أن يجعل المرء العلم طريقاً إلى الخشية، لا ذريعة إلى الكبر؛ فإن العلم الذي لا يهذب النفس قد يزيد صاحبه قدرةً على تبرير انحرافها.

الفصل الثالث والسبعون

خِطَابٌ يَقْطَعُ آخِرَ خُيُوطِ الْاِمْتِرَاءِ

(فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ

لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٠﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

لا تدل الآية على وقوع الشك من النبي ﷺ، وحاشاه؛ فقد كان أثبت الناس يقيناً بما أوحى الله إليه. وإنما يجيء الخطاب على سبيل الفرض الذي يقطع مادة الشك من أصلها، ويسمعه كل متردد من وراء النبي ﷺ: إن خطر لك الامتراء، فشواهد الوحي من حولك، وتاريخ النبوات قبلك، وأهل الكتاب يعرفون أصل ما جاءك من خبر الرسالات.

وكان القرآن يقول: إن هذه الرسالة ليست صوتاً منفرداً ظهر بلا تاريخ، بل الحلقة الخاتمة في سلسلة النور. من قرأ الكتب السابقة قراءةً منصفة، وعرف خبر الأنبياء، رأى أن محمداً ﷺ لم يأت بدين غريب عن أصل الوحي؛ وإنما جاء بالحق الذي يصدق الرسالات ويهيمن عليها ويردّها إلى صفاء التوحيد.

ثم لا يترك السياق الأمر معلقاً على السؤال: (لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ). هذه هي الحقيقة الحاسمة. لم يأتك رأيٌ ينتظر تصويت الناس، بل الحق من ربك؛ من الذي خلقك ويعلمك ويتولى أمرك. وإضافة الحق إلى الربوبية تملأ العبارة دفناً و يقيناً. فالذي أنزل إليك الوحي ليس مجهولاً بعيداً، بل ربك؛ والرب لا يضل عبده الذي اصطفاه، ولا يتركه فريسةً للوهم.

(فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ). الامتراء شكٌ يصحبه اضطراب ومجادلة. وقد تنشأ الحيرة لا من نقص البراهين، بل من كثرة الإصغاء إلى الضجيج المحيط بها. فإذا عرف القلب الحق، احتاج إلى أن يحمي يقينه من الاستنزاف؛ فلا يعيد كل يوم محاكمة ما ثبت له لمجرد أن المكذبين كرروا اعتراضاتهم. ثم يرتفع التحذير: (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ). فالشك إذا ترك بلا طلب صادق للهداية قد ينمو إلى تكذيب، والتكذيب يفضي إلى الخسران. تبدأ المسافة خاطرةً صغيرة، ثم قد تنتهي بصاحبها بعيداً عن الطريق.

والخسران هنا ليس فقدان شيء خارج النفس؛ إنه خسارة النفس نفسها، حين تضيع منها الغاية التي خُلقت لها، وتصل إلى نهاية العمر وقد ربحت أشياء كثيرة إلا النجاة.

الفصل الرابع والسبعون

حِينَ تُغْلَقُ النَّافِذَةُ مِنَ الدَّاخلِ

(إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ
حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

هناك مرحلة من العناد لا تعود المشكلة فيها قلة الآيات؛ فلو جاءت أصحابها كل آية لما آمنوا. لقد انتقل الخلل من الخارج إلى الداخل، وأصبحت العين التي تطالب بالدليل هي نفسها مصرّة على ألا تراه.

لم تحقق عليهم الكلمة ظلمًا ولا ابتداءً؛ بل بعد أن اختاروا التكذيب، واستمروا الفسق، وردوا الحق مرةً بعد مرة. علم الله ما سيصرون عليه باختيارهم، فمضت فيهم سنته العادلة.

(وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ). ما أعظم الخسارة حين تتحول الآيات من أبواب هداية إلى أسباب زيادة في العناد! يرى المعجزة فيبحث عن اسم يهرب به منها، ويسمع الحجة فيصنع حولها شبهة، ويشهد صدق الوعد فينسب به إلى المصادفة.

الدليل لا يعمل في فراغ؛ يحتاج إلى إرادة أخلاقية تريد الحقيقة. وقد يكون العقل قادرًا على فهم البرهان، لكن الكبر يمنعه من التسليم له، أو تكون المصلحة أقوى في نفسه من مقتضى المعرفة.

(حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ). عندئذ يؤمنون إيمان المشاهدة القهرية، لكنه يأتي بعد فوات موضعه. فالله يريد إيمانًا يكشف صدق القلب في زمن الاختيار، لا اعترافًا تنتزعه لحظة العقوبة.

ولهذا كان من أعظم النعم قلبٌ لا يزال يتأثر، وعينٌ لا تزال تدمع، ونفسٌ إذا سمعت الحق استطاعت أن تراجع نفسها. فالقسوة لا تبدأ حين ينكر الإنسان كل شيء، بل حين تمر به الآية فلا تحدث فيه شيئًا.

الفصل الخامس والسبعون

قَوْمُ يُونُسَ: الْقَرْيَةُ الَّتِي غَيَّرَتْ مَصِيرَهَا بِالْإِيمَانِ

(فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَا ءَامَنُوا كَشَفْنَا

عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)

ها هنا يظهر الاسم الذي حملته السورة كلها: يونس. لم تأت قصته مفصلة، بل جاءت لحظة قومه الأخيرة كنافذة من الرحمة وسط تاريخ طويل من القرى التي كذبت حتى نزل بها العذاب.

قوم يونس هم الاستثناء المضيء؛ قرية آمنت قبل أن يغلق الباب، فنفعها إيمانها. رأوا نذر العذاب، لكنهم لم يحولوها إلى مادة لمزيد من المكابرة؛ ارتجفت قلوبهم، وعادوا إلى الله، فغير صدق العودة ما كان متجهاً إليهم من المصير.

(لَمَا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ). ما أكرم هذا الكشف! كان العذاب

قد أقبل بأسبابه ونذره، لكن الإيمان وقف بينه وبينهم. لم يقل الله: مضى

القضاء فلا ينفع رجوع؛ بل فتح للتوبة أثرها، وأعلن أن القلوب إذا

تغيرت بصدق يمكن أن تتغير العواقب.

إن العقوبة ليست غايةً يحبها الله لعباده، وإنما نتيجة إصرارهم على ما يفسدهم. فإذا زال السبب بالتوبة الصادقة، أقبلت الرحمة. ربنا لا يتربص بنا كي يعاقبنا، بل يرسل النذر ليردنا قبل العقوبة.

لذلك حملت السورة اسم يونس، مع أن موسى وفرعون يشغلان فيها مساحةً أوسع؛ لأن اسم يونس يختصر رسالتها الرجائية: لا تيأسوا من أمة، ولا من قرية، ولا من قلب، ما دام يستطيع أن يؤمن قبل حضور اللحظة التي لا ينفع فيها الإيمان.

وقد يبدو المجتمع غارقاً في الغفلة، ثم تمر به لحظة صدق جماعية فيعود. ليست الشعوب محكومةً إلى الأبد بتاريخها الأسود، ولا الفساد قدرًا لا يُرد؛ فالإيمان حين يتحول من كلمات متفرقة إلى توبة عامة يستطيع أن يكشف عذاب الخزي ويمنح الأمة أجلاً جديداً.

(وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ). لم يمنحهم الإيمان خلود الدنيا، بل منحهم مهلةً مباركة إلى أجلهم. فالتوبة لا تلغي قانون الموت، لكنها تغير معنى الحياة التي تسبقه، وتنقل الإنسان من انتظار العقوبة إلى فسحة الرحمة.

يا لها من آية تفتح باب الرجاء: قد يكون بينك وبين تبدل مصيرك
سجدة صدق، وقد يكون بين أمة وبين نجاتها لحظة رجوع حقيقي إلى
الله.

الفصل السادس والسبعون

الإِيمَانُ الَّذِي لَا يُؤْلَدُ بِالْإِكْرَاهِ

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ
حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

لو شاء الله لجعل الناس كلهم مؤمنين إيمانًا لا يستطيعون مخالفته؛ فهو القادر الذي لا يعجزه قلب ولا إرادة. لكنه شاء بحكمته أن تكون الدنيا دار ابتلاء، وأن يظهر صدق الإنسان في اختياره، وأن يأتي إلى الإيمان مستجيبًا للحق لا مسوقًا إليه بإكراه يلغي مسؤوليته.

(لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا). اجتماع كلمتي (كُلُّهُمْ جَمِيعًا) يقطع كل توهم في القدرة؛ فعدم إيمانهم جميعًا ليس لأن الله عجز عن جمعهم عليه، بل لأن حكمته اقتضت الامتحان والاختيار.

ثم يأتي الخطاب للنبي ﷺ: (أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)؟ لقد بلغ حرصه على هدايتهم مبلغًا عظيمًا، حتى كاد الحزن يستهلكه. فجاء القرآن يردّ قلبه إلى حدوده البشرية: عليك البلاغ، أما صناعة الإيمان في القلوب فليست في يدك.

والإكراه قد يصنع سلوكًا ظاهريًا، لكنه لا يصنع إيمانًا؛ لأن الإيمان عمل قلب، والقلب لا تفتحه العصا. يستطيع السلطان أن يجبر لسانًا على كلمة، لكنه لا يستطيع أن يمنحه تصديقًا ومحبةً وتسليمًا.

وهذا يقرر كرامة الاختيار الإنساني مع بقاء الحجة والمسؤولية. لا يقال للباطل إنه حق احترامًا للاختيار، ولا يُترك البيان؛ بل يُعرض الحق واضحًا، ثم يتحمل الإنسان نتيجة موقفه منه.

وفي الآية عزاء للداعية وتصحيح لمنهجه: لا تحوّل محبتك لهداية الناس إلى رغبة في السيطرة عليهم، ولا تجعل رفضهم يدفعك إلى القسوة التي تنفّرهم. ازرع الحقيقة، واسقها بالحكمة، واترك لله سرّ الإنبات.

الفصل السابع والسبعون

إِذْنُ اللَّهِ وَالْعَقْلُ الَّذِي يَفْتَحُ بَابَ الْهَدَايَةِ

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)

لا يدخل الإيمان قلبًا بقوته الذاتية المجردة؛ إنه توفيق وإذن من الله، وفضل يفتح به للعبد باب القبول. قد يسمع الإنسان الحجة نفسها التي سمعها غيره، فتنتفتح لها روحه، ويمرّ بها الآخر فلا تهز فيه شيئًا.

لكن إذن الله لا يلغي مسؤولية الإنسان، كما أن مسؤولية الإنسان لا تستغني عن فضل الله. العبد يطلب الحق، وينظر، ويجاهد هواه، ويقرع الباب؛ والله يأذن للنور أن يدخل، ويبارك الخطوة، ويهدي من علم منه صدق التوجه.

لهذا لا يحق للمؤمن أن يعجب بإيمانه، فكأنه صنعه من ذاته. كل سجدة فضل، وكل يقين منّة، وكل لحظة ثبات عطاء. ولو وكلك الله إلى نفسك لضعت بين شهوة وشبهة.

وفي الوقت نفسه لا يجلس طالب الهداية منتظرًا من غير نظر ولا دعاء؛ فإن الذي يريد المطر يخرج إناءه، والذي يريد النور يفتح نافذته. من صدق في طلب الهدى أراه الله سبله.

(وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ). العقل في القرآن ليس آلة جدل ولا مخزن معلومات، بل قوة تصل بين الدليل ومدلوله، وبين المعرفة والعمل. الذين لا يعقلون هم الذين عطلوا هذه القوة، فلم ينظروا في الآيات، أو فهموها ثم منعوا آثارها من الوصول إلى سلوكهم. والرجس قذارة معنوية واضطراب يعقب الإعراض. فمن رفض استعمال عقله في معرفة الله صار فريسةً للخرافة والهوى والتناقض، وقد يتوهم نفسه متحررًا بينما تتقاسمه عبوديات لا تحصى.

العقل الصادق لا ينازع الوحي، بل يعرف به حدوده ويهتدي بنوره؛ والوحي لا يلغي العقل، بل يوقظه من غفلته ويمنحه الأفق الذي لا تبلغه الحواس وحدها.

الفصل الثامن والسبعون

كُونْ مَفْتُوحٌ... وَعَيْنٌ لَا تَنْظُرُ

(قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ

لَا يُؤْمِنُونَ)

لا يخشى القرآن النظر؛ بل يأمر به: (أَنْظَرُوا). ارفعوا رؤوسكم إلى السماء، وتأملوا الأرض، واقروا التناسق والقوانين والحياة والموت. الإيمان ليس وليد إغماض العين، وإنما ثمرة النظر الذي لا يقف عند سطح الأشياء.

انظروا ماذا في السماوات: اتساعاً يذهل العقل، وأجراماً تسير في صمت، وموازين لا تختل. وانظروا ماذا في الأرض: بذرة تختزن شجرة، وخلية تحمل أسرار الجسد، وماءً واحداً يخرج به نبات مختلف الألوان والطعوم.

كل شيء يقول إنه لم يخلق نفسه، ولم يمنح ذاته قانونه وغايته. الكون ليس مجرد أشياء موجودة، بل دلائل تشير إلى من أوجدها.

غير أن النظر لا يعني مرور البصر؛ فقد ينظر الإنسان إلى السماء كل يوم ولا يرى إلا فراغاً، وقد يدرس أدق قوانين الكون ثم يعزلها عن واضعها. العبرة أن يتجاوز من انتظام الأثر إلى حكمة المؤثر، ومن جمال الصنعة إلى جلال الصانع.

(وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ). الآيات لا تنفع من قرر مسبقاً ألا يؤمن، والنذير لا يحمي من يضع أصابعه في أذنيه. ليست

المشكلة في صمت الكون، بل في ضجيج الهوى.

قد تُحاط النفس بالأدلة، لكنها تفتقر إلى الصدق الذي يجعل الدليل مؤثراً. ومن لم يرد أن يرى، استطاع أن يحول كل آية إلى «مصادفة»، وكل نعمة إلى «استحقاق»، وكل نذير إلى «حدث عابر».

الفصل التاسع والسبعون

أَيَّامُ التَّارِيخِ حِينَ تَعُودُ فِي ثِيَابٍ جَدِيدَةٍ

(فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ

مَنْ الْمُنتَظِرِينَ ۝ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ

الْمُؤْمِنِينَ)

إذا لم تغن الآيات والنذر، فماذا بقي إلا انتظار العاقبة؟ إنهم يسировون في الطريق نفسه الذي سار فيه المكذبون من قبل، فهل يتوقعون نهايةً مختلفة؟

(مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا). للأمم أيامٌ تنكشف فيها السنن، وتسقط الأقنعة،

ويأتي الأمر الذي يفصل بين زمنين. ليست الأيام متشابهة؛ منها يوم

يتضح فيه الباطل، ومنها يوم ينهار، ومنها يوم يُنجي الله فيه

المستضعفين الذين ظن الناس أن لا مستقبل لهم.

التاريخ لا يكرر أشكاله دائماً، لكنه يكرر قوانينه. قد تتغير أسماء

الطغاة وأدواتهم، لكن الاستكبار هو الاستكبار، والتكذيب هو التكذيب،

وعاقبة الظلم لا تتبدل بتبدل الأزياء والشعارات.

(قُلْ فَأَنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ). كلا الطرفين ينتظر، لكن شتان

بين انتظار المكذب وانتظار النبي. المكذب ينتظر متحدياً أن يرى هل

يقع الوعد، والنبي ينتظر واثقاً ليشهد كيف يقع.

ثم تأتي السنة: (ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا). النجاة ليست دائماً أن

يبقى المؤمن بعيداً عن الألم، فقد يُبْتَلَى ويُقْتَل؛ لكن النجاة الكاملة أن

يُحْفَظ دينه، وتبرأ عاقبته، ويخرج من الامتحان إلى رضوان الله. وقد

يجمع الله له معها نجاة الدنيا كما نجى نوحاً وموسى ومن آمن معهما.

(كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ). أوجب الله ذلك على نفسه فضلاً وكرماً،

لا أن أحداً يوجب عليه شيئاً. وما أعظم الطمأنينة حين يجعل رب العالمين

نجاة المؤمنين حقاً وعد به!

قد يضيق الطريق، ويتأخر الفرج، وتختفي ملامح النجاة، لكنها

مكتوبة في الوعد. وليس على المؤمن أن يعرف كيف ستأتي؛ يكفي أن

يعرف ممن تأتي.

الفصل الثمانون

الْبَرَاءَةُ الَّتِي تَحْرُسُ التَّوْحِيدَ

(قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

تقترب السورة من خاتمتها بإعلان واضح لا يعرف التردد: إن كنتم في شك من ديني، فأنا لا أشك فيه، ولن أتنازل عن توحيدي كي أرضي ترددكم.

(فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ). نفْيٌ صريح يسبق الإثبات؛ لأن بناء التوحيد يحتاج إلى إزالة الأصنام من القلب قبل ملئه بعبودية الله. لا يكفي أن تضيف الله إلى قائمة المتعلقات، بل ينبغي أن يكون وحده غاية العبادة.

التوحيد ليس عبارةً ضبابية تسمح لكل المتناقضات أن تجتمع، بل موقف واضح: براءة من عبادة غير الله، وعبودية كاملة لله. ومع ذلك يخاطبهم: (يَأَيُّهَا النَّاسُ)؛ وضوح العقيدة لا يمنع إنسانية الخطاب ولا عدله.

(وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّعُكُمْ). اختير من صفات القدرة هنا أنه يتوفاهم؛

لأن الموت يهدم الأوهام التي صنعتها الحياة. الذين تعبدونهم لا يملكون

دفع الموت عنكم ولا عن أنفسهم، أما الله فبيده آجالكم، وإليه تصيرون.

عجيبٌ أن يهب الإنسان عبادته لما سيتركه عند الموت، ويغفل عمن

يتوفاه ثم يبعثه ويحاسبه! إن ذكر الموت هنا ليس لإثارة الخوف وحده،

بل لتحرير القلب من سحر القوى المؤقتة.

(وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ). النبي ﷺ مأمور كما أنه مبلغ؛ عبدٌ لله

قبل أن يكون قائدًا للناس. وهذه سر عظمته: لم يطلب منهم أن يسلكوا

طريقًا يقف هو خارجه، بل كان أول العابرين فيه وأكملهم.

الفصل الحادي والثمانون

الْوَجْهُ الَّذِي لَا يَلْتَفِتُ عَنِ اللَّهِ

(وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

إقامة الوجه أبلغ من مجرد النظر؛ إنها توجيه الكيان كله بثبات. فالوجه عنوان القصد، وإذا أقامه الإنسان للدين فقد وَّحَّد وجهته، فلم تعد أهواؤه تسحبه كل يوم إلى قبلة جديدة.

(أَقِمَّ وَجْهَكَ)؛ لا تمل مع الريح، ولا تجعل مواقف الناس تحدد اتجاهك. قد يُقبلون اليوم ويُعرضون غدًا، وقد يمدحون الحق حين يخدم مصالحهم ثم يخاصمونهم حين يحاسبهم؛ أما وجه المؤمن فمقيم.

(لِلدِّينِ)؛ للهدى الذي أنزله الله، لا لدين تصنعه الرغبات وتبدله الأزمان. والإقامة تقتضي حضورًا كاملاً، لا عبادةً موسمية، ولا تدينًا في الشعائر ثم غيابًا للقيم في المعاملات.

(حَنِيفًا)؛ مائلاً عن كل باطل إلى الحق، وعن كل شرك إلى التوحيد. الحنيفية حركة تحرر مستمرة؛ فالأصنام لا تعود دائماً في صورة حجر، بل قد تأتي في صورة مال أو شهرة أو شخص أو ذات متضخمة. وكلما حاول شيء أن يحتل مركز القلب، مال الحنيف عنه إلى الله. (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ). الخطاب للنبي ﷺ، والمراد تثبيت الأمة وتعليمها خطر الشرك. فإذا كان التوحيد يؤكد بهذا الوضوح في خطاب أكرم الخلق، فلا يظن أحد أن قلبه مستغن عن حراسته. القلب كثير الالتفات؛ قد يصلي لله، ثم يلتفت إلى الناس ينتظر ثناءهم، أو يعمل للحق ثم يلتفت إلى نفسه يعجب بها. وإقامة الوجه جهاداً دائماً لتصحيح الاتجاه كلما حاولت الشواغل حرقه.

الفصل الثاني والثمانون

لَا تَدْعُ مَنْ لَا يَمْلِكُ لَكَ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا

(وَلَا تَدْعُ مَنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مَنَّ

الظَّالِمِينَ)

الدعاء اعترافٌ عميق بالفقر، ولذلك لا ينبغي أن يُصرف إلا لمن يملك الإجابة. حين يدعو الإنسان فهو يقول في باطنه: أنت تسمعني، وتعلم حاجتي، وتقدر على تغيير حالي. وهذه معانٍ لا تجتمع على الحقيقة إلا لله.

(مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ). كل ما سوى الله عاجزٌ بذاته؛ لا ينفع ولا يضر

استقلالاً، وإنما تجري الأسباب بما أذن الله. قد ينفعك طبيب، أو يعينك

صديق، أو يحميك صاحب قوة في حدود ما أقدره الله عليه، لكن قلبك

يعلم أن القدرة المخلوقة محاطة بإرادة الخالق.

والمشكلة لا تكون في طلب ما يقدر عليه الإنسان من الإنسان، فهذا

من الأخذ بالأسباب؛ وإنما في دعائه فيما لا يقدر عليه إلا الله، وتعليق

الرجاء الغيبي به، ومنحه خصائص الربوبية.

(فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِّنَ الظَّالِمِينَ). الشُّرَكَ ظَلَمَ؛ لَأَنَّهُ يَضَعُ الْعِبَادَةَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا، وَيَسَوِّي الْعَاجِزَ بِالْقَادِرِ، وَيَنْقُلُ حَقَّ اللَّهِ إِلَى مَمْلُوكٍ مِنْ مَمَالِيكِهِ. وَهُوَ ظَلَمَ لِلنَّفْسِ لِأَنَّهَا تَهْبِطُ مِنْ شَرَفِ الْعِبُودِيَّةِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَى التَّعَلُّقِ بِمَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يَمْلِكُ. وَمَا أَذَلَّ الْقَلْبَ حِينَ يَتَوَزَّعُ بَيْنَ أَبْوَابِ الْمَخْلُوقِينَ، وَمَا أَعَزَّهُ حِينَ يَجْمَعُ فَقْرَهُ كُلَّهُ عِنْدَ بَابِ اللَّهِ! التَّوْحِيدُ لَا يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ بِلَا حَاجَةٍ؛ بَلْ يَمْنَحُهُ الْوَجْهَةَ الَّتِي يَحْمِلُ إِلَيْهَا حَاجَاتُهُ، فَلَا يَتَشَتَّتُ رَجَاؤُهُ وَلَا يَنْكَسِرُ إِلَّا بَيْنَ يَدَيِ رَبِّهِ.

الفصل الثالث والثمانون

لَا كَاشِفَ لِلضَّرِّ إِلَّا هُوَ، وَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ

(وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ

لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

هذه آية تكفي وحدها لتعيد القلب من شتاته كله إلى الله.

(وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ). قال (يَمَسُّكَ)، فكأن الضر مهما اشتد ليس إلا

مسًا عابرًا أمام اتساع رحمة الله وأبدية الآخرة. قد يملأ الألم وعي الإنسان

حتى يظن أنه صار حياته كلها، لكن القرآن يرده إلى حجمه: شيء مسك

بإذن الله، وليس هو حقيقتك ولا مصيرك النهائي.

(فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ). قد يجعل الطبيب سببًا للشفاء، والصديق سببًا

للفرج، والمال سببًا للحل؛ لكن الكاشف على الحقيقة هو الله. كم من دواء

تناول الجرعة نفسها، فلم يعمل في جسدين بالطريقة نفسها! وكم من باب

توفرت أسبابه كلها ولم يُفتح حتى جاء إذن الله!

لا تعني الآية ترك العلاج أو إهمال الأسباب، بل ألا يحجب السبب قلبك عن مسببه. اذهب إلى الطبيب وجوارحك تأخذ بالسبب، وقلبك يقول: لا شافي إلا الله. اسع في رزقك، وقلبك يعرف أن الخلق جميعًا لو اجتمعوا لم يمنحوك ما لم يكتبه الله.

ثم تنتقل الآية من الضر إلى الخير، لكن التعبير يتغير: (وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ). لم يقل: وإن يمسسك بخير، بل نسب الخير إلى إرادته وسمّاه فضلًا؛ فالخير يتدفق من فضله، والضر يقع بحكمته، وكلاهما تحت ربوبيته.

إذا أرادك الله بخير، فلن يستطيع أحد أن يقف في طريقه. قد يغلقون بابًا فيفتح الله لك من الجدار منفذًا، وقد يحجبون عنك سببًا فيسوق الخير إليك بلا سبب تعرفه، وقد يظنون أنهم أطفؤوا مستقبلك فيجعل الله من الرماد بداية نور.

(فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ). يا لها من طمأنينة لمن يخاف حسد الحاسدين وكيد الماكرين! يستطيعون المحاولة، لكنهم لا يستطيعون رد فضل كتبه الله. وما وصل إليك لم يكن العالم قادرًا على منعه، وما فاتك لم يكن العالم

(يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ). يصل الفضل إلى موضعه بدقة الإصابة؛ لا يضل عنوانك، ولا يخطئ وقتك. قد يتأخر في حسابك، لكنه يأتي في اللحظة التي علم الله أنها خير لك. وتُختم الآية: (وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ). حتى بعد الحديث عن الضر، يفتح الله نافذة المغفرة والرحمة؛ لئلا يظن المبتلى أن الألم علامة طرد. قد يكون الضر نفسه بابًا إلى مغفرة، وقد تكون الكسرة طريقًا إلى رحمة لم يكن القلب ليدخلها وهو ممتلئ بقوته.

الفصل الرابع والثمانون

الْهَدَايَةُ رِبْحُ النَّفْسِ وَالضَّلَالُ خَسَارُهَا

(قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي

لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)

تعود السورة في خاتمتها إلى النداء العام الذي ورد في آية الموعظة والشفاء: (يَأَيُّهَا النَّاسُ). فالحق جاء للجميع، لا يحتكره عرق ولا قوم ولا طبقة.

(قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ). لم يعد الإنسان قادرًا على الاحتجاج بأن الطريق غامض؛ جاء الحق، ووقف عند باب القلب، وبين له من أين أتى وإلى أين يدعو.

ثم تُرد كل نفس إلى مسؤوليتها: (فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ). لا تزيد هدايتك في ملك الله شيئًا، لكنها تنقذ وجودك أنت. الصلاة لا تمنح الله عظمة لم تكن له، بل تمنح قلبك صلةً بالعظيم. والتوبة لا ترفع عن الله ضرر معصيتك، بل ترفع عنك أنت أثرها.

(وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ). لا يضر الله إعراضُ المعرضين، وإنما تردد خسارة الضلال عليهم. المعصية لا تخذش ملك الله، بل تخذش الفطرة التي أودعها في صاحبها.

وهكذا يتحمل الإنسان كرامة اختياره وثقله. لا يستطيع أن يلقي تبعة مصيره على المجتمع والآباء والرفاق، وإن كانت لهم آثارهم؛ ففي داخله موضع أخير يقول فيه نعم أو لا، وعليه تقوم مسؤوليته.

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ). الرسول ﷺ مبلّغ ونذير وبشير، لا يجبر القلوب ولا يتولى حسابها. وما أرحم هذا الفصل بين البلاغ والسلطة على الضمائر! فوظيفة الرسالة أن تضيء الطريق، ووظيفة الإنسان أن يختار السير.

الفصل الخامس والثمانون

وَاتَّبِعْ ... وَاصْبِرْ ... حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ

(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَكِمِينَ)

تُخْتَمُ سورة يونس بثلاث حركات تختصر طريق المؤمن كله: اتباع، وصبر، وانتظار لحكم الله.

(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ). لا تتقدم بين يدي الوحي، ولا تعدّل طريقه طلباً لرضا الناس، ولا تجعل اضطراب الواقع حاكماً على كلمة الله. الاتباع يعني أن يكون الوحي أمامك وأنت وراءه؛ لا أن تستدعيه بعد أن تختار الطريق ليبارك اختيارك.

وقد بدأ الدين كله بالاتباع، لا بالابتكار البشري للغيب. فالإنسان مهما اتسع عقله لا يستطيع أن يصنع لنفسه خبراً يقينياً عن الله والآخرة وغاية الوجود. حاجته إلى الوحي ليست نقصاً معيباً، بل حقيقة فطرته المحدودة؛ كما أن العين لا تستغني عن الضوء مهما كانت سليمة.

ثم: (وَأَصْبِرْ). لأن اتباع الوحي لا يجعل الطريق مفروشا بالراحة. ستواجهك شهوة في داخلك، وضغط من حولك، وسخرية من المكذابين، وتأخر في النتائج. والصبر هو القوة التي تمنعك من ترك الحق في المسافة بين الوعد وتحقيقه.

لم يقل: اصبر مدةً تحددها أنت، بل (حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ). قد يطول الانتظار، لكن نهايته ليست الفراغ؛ في آخره حكم الله. يجيء الحكم في الوقت الذي تكتمل فيه الحكمة، لا في الوقت الذي تنفذ فيه عجلة الإنسان.

وقد يحكم الله بنصرٍ تراه في الدنيا، أو يؤخر تمام الفصل إلى الآخرة؛ وفي الحاليين لا يضيع صبرك. لأنك لا تنتظر حادثةً فحسب، بل تنتظر حكم من لا يظلم ولا ينسى.

(وَهُوَ خَيْرُ الْحَكَمِينَ). يحكم بعلم لا يغيب عنه تفصيل، وعدل لا تميله خصومة، ورحمة لا تخلو منها أقداره، وقدرة لا يعجزها تنفيذ الحكم. قد يحكم الناس عليك من ظاهر، ويحاكمون نيتك من وهم، لكن الله يعلمك كما أنت، لا كما رسمتك الألسنة.

وهكذا تنتهي السورة دون أن تقول للمؤمن: ستفهم كل شيء الآن، بل تقول له ما هو أعمق: اتبع ما تعرف من الوحي، واصبر فيما لم تفهم من القدر، وثق أن الحكم الأخير لله.

خاتمة الرحلة

مِنَ الْمَوْجِ إِلَى الْوَعْدِ

بدأت سورة يونس بالكتاب الحكيم، وانتهت بحكم خير الحاكمين. وبين الحكمة في أولها والحكم في آخرها مضى القلب في رحلة طويلة، رأى فيها الكون وهو يُدَبَّر، والإنسان وهو يستعجل، والدنيا وهي تنتزین ثم تصیر حصيداً، والسفينة وهي تضطرب، والطغيان وهو ينتفخ، والبحر وهو ينشق، والجسد المتأله وهو يطفو بلا قوة، والقرية التي آمنت فتغيّر مصيرها.

إن الخيط الجامع للسورة هو اليقين بتدبير الله حين تضطرب ظواهر الحياة.

تقول لك السورة: لا تخذعك اللحظة؛ فإن اللحظة لا تحمل تفسيرها كاملاً. قد ترى المؤمن خائفاً تحت سلطان فرعون، ولا ترى البحر الذي سيفتح له. وقد ترى الطاغية محاطاً بالذهب والجنود، ولا ترى الماء الذي يسير نحوه. وقد ترى الأرض أخذت زخرفها وازينت، ولا

ترى الأمر الآتي ليلاً أو نهاراً. وقد ترى الدعاء طال، ولا ترى أن الله قال في الغيب: (قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا).

وتقول لك: لا تجعل تأخر الحقيقة شكاً فيها. فالله يحق الحق بكلماته ولو كره المجرمون، لكنه لا يعمل وفق عجلة المتفرجين. للحق زمن إعداده، وللباطل أجل، وللدعاء طريق بين ارتفاعه إلى السماء ونزول جوابه إلى الأرض.

وتريك السورة ضعف الإنسان حين يستغني، وصدقه الفطري حين تحيط به الأمواج. في الرخاء يصنع الشركاء، وفي البحر يدعو الله مخلصاً له الدين؛ فإذا نجا كان امتحانه الحقيقي: هل يحفظ على اليابسة يقين البحر؟

ثم تفتح القرآن أمام الصدور موعظةً وشفاءً وهدى ورحمة، وتأمّر المؤمن أن يفرح به أكثر مما يفرح الناس بما يجمعون. فالمال قد يضيع، والأرض قد تصبح حصيداً، والملك قد يغرق؛ أما كلمة الله فتبقى تحمل القلب من متاهة الظن إلى أرض اليقين.

وفي مركز السورة يقف قوم يونس شاهدين على أن المصير ليس جدارًا مغلقًا ما دامت التوبة ممكنة. لم يكونوا أمة بلا خطيئة، بل كانوا أمة عرفت لحظة العودة قبل فواتها. فرفع الله عنهم العذاب، ليظل اسمهم نداءً لكل فرد وأمة:

يمكن للرجوع الصادق أن يغيّر الطريق قبل نهايته.

ثم تلخص الآية العظيمة أمان المؤمن كله: (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ -).

فلا تجعل قلبك يتسوّل الأمان عند عاجز، ولا تظن أن كيد الناس يرد فضل الله، ولا أن إغلاق أبواب الأرض يعني أن خزائن السماء أُغلقت. ما من ضر إلا وله عند الله كشف، وما من خير أراده لك إلا وله طريق، ولو لم تر الطريق بعد.

وفي الكلمة الأخيرة من السورة يقف المؤمن عند حد العبودية الجميل:

يتبع فلا يبتدع لنفسه هدى، ويصبر فلا يستعجل الموعد، وينتظر فلا يسيء الظن بالحاكم.

وهذا هو اليقين الذي تصنعه سورة يونس:

أن تعمل وقلبك ساكن،

وأن تدعو وإن تأخر الجواب،

وأن تثبت وإن علا فرعون،

وأن تركب السفينة وإن سخر الناس،

وأن ترى وراء الموج ربًّا يدبّر،

ووراء التأخير وعدًّا ينمو،

ووراء الطريق كله حكمًا لا يظلم: (وَأَصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ

الْحَكَمِينَ).

وبهذا اكتمل التأمل في سورة يونس بجميع آياتها، من الآية الأولى

إلى الآية التاسعة بعد المئة، من غير إسقاط آية. والحمد لله الذي بنعمته

تتم الصالحات.

تم بحمد الله